الشخصية السوية

بين الإعجاز الإسلامي وعلم النفس

حسين ياسين عبد القادر

المكتب المصري الحديث
www.almaktabalmasry.com

بسم الله الرحمن الرحيم

"وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا.
قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا"

(الشمس ٧-٩)

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى طريقة كانت
ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية
أو غيرها إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدماً

المكتب المصرى الحديث

www.almaktabalmasry.com
almaktabalmasry@hotmail.com

القـــاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت: ٣٩٣٤١٢٧
الإسكندرية: ٧ شـــارع نوبـــار المنشـــية ت: ٤٨٤٦٦٠٢

تمهيد

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا. من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً. ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهديه وسلك طريقه إلى يوم الدين وبعد.

قارئي العزيز:

شُرفتُ بلقائك – منذ حوالي ست سنوات – في كتاب لي عنوانه "الإعجاز الطبي في الكتاب والسنة"، واليوم قد من الله تعالى عليَ بتوفيقه وعنايته بأن أقدم هذا الكتاب بعنوان "الشخصية السوية بين الإعجاز الإسلامي وعلم النفس" والكتابان السابق واللاحق تجمعهما صلة رحم ووشيجة قربى، ألا وهي قضية الإعجاز الذي مما جاء في تعريفه في الكتاب الأول "الإخبار عن بعض الأطعمة والأشربة على سبيل الجواز أو المنع" ثم يأتي علم الطب والغذاء –بعد أربعة عشر قرناً– ليؤكد الفوائد الطبية والغذائية لما أجازه الكتاب والسنة، ويؤيد المضار الصحية والغذائية لما منعاه، فالنظرة المستقبلية الصائبة للإسلام، والمؤيدة علمياً وطبياً بعد أربعة عشر قرناً هي المعنية بالإعجاز.

وكتابنا الحالي "الشخصية السوية بين الإعجاز الإسلامي وعلم النفس" يتناول ماهية الإعجاز المشار إليها، ولكن في ميدان آخر هو ميدان القيم الخلقية والمعنوية في المنظور الإسلامي، أو ميدان السمات السلوكية للشخصية السوية بمصطلح علم النفس الحديث.

وسنوجز في هذا التمهيد اثنتين من سبع قيم أو سمات للشخصية السوية تناولناها في هذا الكتاب بالتفصيل، مؤكدين أسبقية الإسلام وإعجازه لما جعله علم النفس شروطاً ومظاهر لهذه الشخصية، وقد اكتفيت بهذه السمات السبع، دون ذكر الثلاث الباقية من سمات الشخصية السوية وذلك لسببين أولهما لاعتقادي أن الثلاث الأخرى يصح إدراجها فى السمات المذكورة، وثانيهما أن كثيرين من علماء النفس اقتصروا هذه السمات على ما ذكرتها..

- فضبط النفس والتحكم في السلوك من سمات الشخصية السوية في مفهوم علم النفس الحديث. والإسلام لما كان ديناً يحرص على السلوك الإنساني القائم على الخصال الكريمة والأخلاق القويمة، حرص على كبح جماح الانفعالات السلبية وذلك بالتحلي بخلق الحلم، وكظم الغيظ. وعدم الاندفاع والشطط في اتخاذ المواقف الهوجاء المتسرعة، ولا سيما لكل من يتقلد موقعاً قيادياً، ومسئولية كبرى، ورسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم القدوة والأسوة الحسنة للإنسانية جمعاء. كان موقفه عليه الصلاة والسلام من مشركي قريش في صلح الحديبية مثالاً ونموذجاً للقائد الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها فلا يتخذ قراراً يبدو في ظاهره قراراً نابعاً من شجاعة المسئول وإقدامه وبطولته التي يحرص عليها كثير من الناس فحب الثناء والمديح طبيعة الإنسان. وعلى الرغم من ذلك فقدوة الإنسانية صلى الله عليه وسلم لم يؤثر إلا الموقف الذي يحقق أهدافاً عليا، ومقاصد عظيمة،فقد كان عليه الصلاة والسلام يهمه أمر هذه الأمة الإسلامية الناشئة وفي سبيلها ينبغي تجاهل ونسيان كل ما يتوهم ويدور حتى في خلد ونفس أصحابه رضي الله عنهم وغير أصحابه ممن يظن أن صلح الحديبية تخاذل واستسلام من جانب الفئة المؤمنة لكل شروط ومطالب المشركين. لأن الحقيقة غير ذلك فالرسول صلوات الله وسلامه عليه لا يلجأ إلى القتال ما دام هناك وسيلة لتجنبه والبعد عنه – كما هو مبدأ الإسلام- بالجنوح إلى السلام وإيثاره إذا تيسر الوصول إليه.

إنه صلى الله عليه وسلم، بعث برسالة من الحديبية عبر القرون التالية والأزمنة المستقبلية إلى العالم أجمع، رسالة مفادها أن الإسلام دين الأمن والسلام وأن السلام هو القاعدة الكلية في منهج هذا الدين. وأن القتال هو الاستثناء الضروري عند استنفاد جميع وسائل السلام. إنه عليه الصلاة والسلام -قبل أربعة عشر قرناً ألقم كل من اتهم الإسلام بالإرهاب والعنف المسلح والتطرف والغلو والإفراط ألقمهم حجراً، فليخسأوا ولتخرس ألسنتهم التي لا تنطق إلا زوراً وكذباً وبهتاناً.

- من قيم الإسلام أيضاً ومبادئه البناءة، والتي جعلها علم النفس سمة من سمات الشخصية السوية التعاون وعدم الاستغناء عن الآخرين. وكما قلنا فإن الإعجاز الإسلامي متحقق ومؤكد في تفرد الإسلام بقصب السبق في هذا المضمار الفعال والمهم في جميع المناحي والجوانب الإنسانية، وفي مختلف الأطوار والحقب التاريخية، والتعاون المطلوب إسلامياً ليس على وجه الإطلاق. وإنما هو التعاون الإيجابي، التعاون على البر والتقوى، وكان لا بد من هذا القيد الملائم لروح الدين الحنيف وجوهره السامي المختلف عن المعايير الجاهلية المحكومة بالحمية والعصبية الهدامة والمتمثلة في مقولتهم "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً"، ولما كانت هذه المقولة الجاهلية مناقضة للتعاون في المفهوم الإسلامي. كان لا بد لهذه المقولة أن تمنهج إسلامياً قبل أن تدخل حظيرة الإسلام بتوجيه نبوي كريم. على الرغم من تركها بصيغتها اللفظية والنصية فلما قال صلى الله عليه وسلم: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً سئل عليه الصلاة والسلام كيف نصر الظالم قال: تمنعه وتحجزه عن ظلمه.

وجاء علم النفس الحديث -بعد أربعة عشر قرناً من شروق شمس الإسلام- ليعتبر التعاون من سمات ومكونات الشخصية السوية. والآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الصحيحة التي تدعو وتحض على التآزر والاستمساك والتكاتف على الخير ما أكثرها منها قوله تعالى: "وتعاونوا على البر والتقوى

ولا تعاونوا على الإثم والعدوان" وقوله عز وجل "واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا" وقوله صلى الله عليه وسلم "مثل المسلمين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الأعضاء بالسهر والحمى" ولقد أدركت دول وشعوب عديدة في عصرنا الحاضر أهمية وجدوى الاتحاد والتضامن في جميع المجالات الحياتية. فها هو الاتحاد الأوربي وحلف الناتو ومجموعة الأسيان، وغيرها كثير. ما عدا الدول العربية والإسلامية التي مازالت ممزقة الكلمة والصف والتوجه. ولقد أظهر العدوان الأمريكي البريطاني على العراق مدى تفرقهم وتشرذمهم وتشتيتهم. فلم نر موقفاً إيجابياً عربياً وإسلامياً في مصلحة دولة عربية إسلامية تعرضت لأبشع وأفظع ألوان القتل والتدمير والإبادة، مخلفة آلاف الضحايا من الأطفال والنساء والشيوخ وآلاف المنازل والمباني المدمرة على شاغليها الأبرياء. حيال هذا الاعتداء كان الصمت العاجز واللامبالاة والسلبية من جانب الحكام العرب جميعاً. أو لم يكن يستطيعون عند تخطيط الغزاة وتدبير هجومهم على العراق بأن يوجهوا إنذاراً لواشنطن بسحب جميع قواعدها العسكرية من دول الخليج التي انطلقت منها وسائل الغزو والتدمير؟ لم لم يستخدموا سلاح سحب الأرصدة المالية العربية من المصارف الأمريكية؟!

إن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه كان يقول: لو عثرت دابة في العراق لسئل عمر عنها لما لم يمهد لها الطريق؟ فيا ترى ماذا يكون حسابنا عند من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء إزاء آلاف الدماء المسلمة التي أريقت دون جرم.

في اعتقادي أن هذا التساؤل لم يرد في ذهن أحد منا حكاماً ومحكومين، والدليل على ذلك أننا وبعد سقوط العراق في أيدي قوى البغي، سمعنا أصداء دندنات في الشارع الثقافي والإعلامي العربي تجرم استبداد حاكم العراق. وتحمله مسئولية ما حدث للعراق والشعب العراقي.

وكأنى بهؤلاء يوافقون مؤيدين الغزاة الغاصبين في زعمهم الباطل وهو أنهم لم يعلنوا الحرب ضد العراق إلا حرصاً على حرية الشعب العراقي، بعد أن يقضوا على حاكمهم الدكتاتور. يا للمأساة ويا للمهزلة ويا للسخرية والاستخفاف بعقولنا. حرية ثمنها دماء آلاف القتلى من النساء والأطفال والشيوخ والسطو المسلح على الثروة البترولية. وانتهاك حرمة الحضارة والثقافة والتاريخ والتعليم!!

أيها السادة: من المعلوم المؤكد لنا جميعاً أن الاستبداد بجميع أشكاله البشعة والقبيحة والمزرية مرفوضة من كل من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ولكن مسئولية إزالة الاستبداد ليست مسئولية الغزاة الأجانب ولكنها مسئولية الشعوب التي تكتوي بنير الحاكم الفرد الطاغية. وللإسلام منهج حضاري في محاربة كل صور الاستبداد. منهج حضاري راق. لا يلجأ ولا يحرض على الصراعات الدموية أو سفك وإراقة الدماء البريئة للحد من غطرسة وكبرياء الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد. إنما الإسلام يؤثر ويدعو إلى سلاح الكلمة بالحكمة والموعظة الحسنة. يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى سلاح النصيحة لله ولرسوله ولعامة المسلمين وأئمتهم. والإسلام -كدين حضاري أيضاً- يشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون الأمر والنهي ليسا منكرين أي باللطف وليس بالعنف ولو باللفظ أو الحوار.

إن فرعون الذى ألّه نفسه من دون الله تعالى، عندما أرسل الله عز وجل رسوليه موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام إليه. بماذا أوصاهما سبحانه وتعالى في مخاطبة فرعون- عدو الله تعالى وعدو موسى عليه السلام- الذي لم يستح أن يقول لقومه أنا ربكم الأعلى. لقد أوصاهما بمخاطبته باللين من الحوار، وليس بالعنف والغلظة قال عز وجل "اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى" (طه ٤٣-٤٤). إنه الإسلام الذى يحسن المخاطبة، ولو كان المخاطب عدواً لدوداً. هل هناك دين أعظم وأرقى مثل هذا الدين.

وعلى جميع وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية في مختلف الدول العربية والإسلامية وجميع المؤسسات التشريعية والشعبية مسئولية مساءلة ومحاسبة حكامها. وتقويم ما تراه فيهم من اعوجاج وسلبيات وأخطاء بالكلمة الهادية والحوار الحضاري البناء. فلا يضير ذلك أبداً هؤلاء الحكام. ولا يحط من شأنهم وقدرهم. بل هو أفضل كثيراً من ممارسة النفاق والمداهنة والتملق. ومن يفعل ذلك فلا يكَن حباً وتقديراً لحاكم أو وطن، وإنما يسعى ويحرص على منافعه ومآربه الشخصية والدنيوية الزائلة.

قال أحد المسلمين يوماً لعمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه: اتق الله. فاستكثر من سمع هذه المقالة مستنكراً أن توجه لأمير المؤمنين. ولكن عمر بن الخطاب لم يستنكرها ولم يستكثرها وإنما قال: قولوها! فلا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها.

* * *

أخيراً

أسأل الله العلي القدير أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم ولا يجعل شيئاً منه لأحد سواه، فإن كان فيه صواب فمن نعم الله تعالى عليَ التي لا تعد ولا تحصى، وإن كان هناك خطأ فمني ومن الشيطان. ورحم الله تعالى الإمام الشافعي الذي يقول "لقد ألفت هذه الكتب، ولم آل فيها (أي لم أقصر) ولا بد أن يوجد فيها من الخطأ، لأن الله تعالى يقول: "وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا" (النساء ٨٢).

حسن ياسين عبد القادر
حدائق حلوان – ربيع الأول ١٣٢٤هـ
الموافق مايو ٢٠٠٣م

السمة الأولى

ضبط الذات والتحكم في السلوك

من القيم الإسلامية الراسخة امتلاك النفس، وكبح جماح الأنفعالات السلبية، "قال صلى الله عليه وسلم: ما تعدون الصرعة فيكم؟ قلنا: الذي لا تصرعه الرجال. قال: ليس ذلك، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب"[1] ولما كانت سورة الغضب وعنفوانه تؤدي إلى عواقب وخيمة، دعا الإسلام -وقاية من شرور الغضب ومضاره- إلى التحلي بالحلم وكظم الغيظ، والعفو والتسامح، كما دعا إلى الروية والأناة في كل شيء، فالحلم -كما هو معلوم- صفة من صفات الله تعالى عز وجل، واسم من أسمائه الحسنى، فهو سبحانه حليم بعباده، رءوف بهم "وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا" (فاطر ٤٥). ونحن مأمورون من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم بالتخلق بأخلاق الله تبارك وتعالى.

وكانت العصبية والحمية والغضب من سمات الشخصية الجاهلية ففي صلح الحديبية تميز كفار قريش بهذه الأخلاق القبيحة التي عرضها القرآن الكريم في معرض ذم هؤلاء الذين حالوا دون اعتمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، يقول الله الحق جل وشأنه "إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا" (الفتح ٢٦).

ويقول الإمام فخر الدين الرازي رضى الله تعالى عنه في تفسيره لهذه الآية الكريمة "...الحمية نفسها صفة مذمومة، وبالإضافة إلى الجاهلية تزداد قبحاً

---

(١) رواه مسلم

وللحمية من القبح درجة لا يعتبر معها قبح القبائح، كالمضاف إلى الجاهلية[1] وفي تقابل الغضب الجاهلي المتأصل في نفوس من أعرض عن منهج الله تعالى ونأى بجانبه. كانت السكينة المنزلة من العليم الخبير نصيب رسول الله صلوت الله وسلامه عليه، ونصيب المؤمنين برداً وسلاماً.

ثم يقول الإمام الرازي رضى الله تعالى عنه "إن أحد العدوين إذا اشتد غضبه، فالعدو الآخر إن كان مثله في القوة يغضب أيضاً. وهذا يثير الفتن، وإن كان أضعف منه ينهزم أو ينقاد له والله تعالى أنزل في مقابلة حمية الكافرين على المؤمنين سكينته حتى لم يغضبوا، ولم ينهزموا. وهو بعيد في العادة. فهو من فضل الله تعالى[2].

ونحن نؤيد ما ذهب إليه الإمام فخر الدين الرازي في رؤيته الثاقبة فيما تضمنته شروط صلح الحديبية التي بدت مجحفة لحقوق المسلمين. وعلى الرغم من ذلك لم تحدث فتنة أو غضب يبعث على القتال وسفك الدماء ثم يتم للأطفال وترمل النساء، وثكل للأمهات. ولكن الذي حال دون هذه الكوارث وحقن إرقة الدماء هو الحرص الأكيد على دعوة الإسلام للسلام. فرسول الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم موصوف من قبل أصدق القائلين بأنه عليه الصلاة والسلام حريص على المؤمنين رءوف رحيم بهم "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ" (التوبة ١٢٨). أي أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه يشق عليه مشقتكم وعنتكم. حريص على الحفاظ على حياتكم. لا يلقي بكم في المكاره والمصاعب. فالجهاد في الإسلام لم يشرع إلا للدفاع عن النفس، وبعد استنفاد جميع فرص السلام المتاحة والممكنة. فإذا لاحت بارقة أمل لتجنب الصدام المسلح فأهلاً وسهلاً. وهذا ما انتهجه وأرتآه نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية الذي أورده الإمام ابن القيم الجوزية في كتابه "زاد المعاد في هدي خير العباد"والذى سنعرضه هنا بإيجاز

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٤

(٢) المصدر السابق.

وتصرف "فلقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المدينة معتمرين.. وبعد إحرامهم بالعمرة في ذي الحليفة[1]، علموا أن مشركي قريش مقاتلوهم وصادوهم عن المسجد الحرام. وحينئذ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان رضي الله عنه ليرسله إلى قريش وقال له:أخبرهم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عماراً وأدعهم إلى الإسلام. وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات فيدخل عليهم. ويبشرهم بالفتح. ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة حتى لا يستخفي فيها الإيمان. وبعد أن انطلق عثمان بن عفان إلى مكة بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عثمان قد قتل، فدعا إلى البيعة. فثار المسلمون، وبايعوا رسول الله عليه الصلاة والسلام على ألا يفروا. وبعد أن تمت البيعة رجع عثمان.

ثم جاء سهيل بن عمرو موفدا من قريش لمفاوضة المسلمين ولكتابة شروط الصلح، فكتب الكاتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما ندري ما هي؟ ولكن اكتب باسمك اللهم فقال المسلمون والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اكتب باسمك اللهم/، ثم قال اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فقال سهيل: فوالله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك. ولكن اكتب محمد بن عبد الله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم إني رسول الله ولو كذبتموني. اكتب محمد بن عبد الله. فقال النبي عليه الصلاة والسلام على أن تخلو بيننا وبين البيت فنطوف به فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة. ولكن ذلك من العام المقبل فكتب. فقال سهيل: على أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، فقال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين، وقد جاء مسلماً فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله ألست نبي الله؟ فقال: بلى. قال: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، فقال عمر: علام نعطي الدنية في ديننا؟ ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا، فقال النبي صلى الله

---

(١) الميقات المكاني للقادم من جهة المدينة المنورة.

عليه وسلم إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه، قال عمر: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به. قال: بلى أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟ قال: لا قال: فإنك آتيه ومطوف به، قال عمر: فأتيت أبا بكر فقلت له كما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ورد عليه أبو بكر كما رد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء، وزاد فاستمسك بغرزه حتى تموت فوالله إنك لعلى الحق. قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً[1].

* * *

أصحاب النظرة السطحية والفكر الضحل والأفق الضيق المحدود سيحسبون نصوص اتفاق صلح الحديبية نخاذلاً واستسلاماً وانهزاماً من جانب الفئة المؤمنة، وهم معذورون لأنهم يجهلون أن من يملك قرار الحرب والسلام ينبغي عليه أن يتحلى بالحكمة والروية والأناة وبالبصيرة السياسية والعسكرية التي تكشف الأبعاد المستقبلية للقرار حرباً أو سلماً، ويسبر الأغوار البعيدة والنتائج المحتملة لقراره ولقد تأكدت مصداقية هذا القرار الحكيم للقائد العظيم، صلى الله عليه وسلم، وكانت رؤيته المستقبلية الصائبة باعثاً قوياً فى الفتح المبين فتح مكة ودخول الناس فى دين الله افواجا، وذلك بعد أن نقض المشركون شروط صلح الحديبية، ولقد عاصرنا عواقب القرارات الهوجاء والمتسرعة غير المدروسة سياسياً أو عسكرياً، ومازالت الأمة الإسلامية والعربية تعاني آثار تلك العنتريات الصوتية التي أوردت مصير الأمة والشعوب موارد الهزيمة الساحقة والخيبة والخسران[2].

ورسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة في القيادة العسكرية والسياسية والاجتماعية والأسرية، لم يدفعه عدم رضاه عن نصوص صلح الحديبية بالإضافة إلى غضب المسلمين الذي ظهر جلياً ومجسداً في حوار الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع الرسول عليه الصلاة والسلام، نعم

---

(١) باختصار وتصرف من زاد المعاد ج٢

(٢) يراجع كتابنا "لا إله إلا الله محمد رسول الله حضارة ومنهج حياة" الناشر" المكتب المصري الحديث"

لم يدفعه عدم اقتناعه بشروط مشركي قريش وغضب المسلمين إلى استلال السيوف من أغمادها واللجوء إلى مجابهة الأعداء عسكرياً.

نعم لم يفعل الرسول صلوات الله وسلامه عليه ذلك وإنما أراد أن يوجه من "الحديبية" إلى العالمين كافة عبر القرون التالية وحتى القرن الحادي والعشرين الميلادي وإلى قيام الساعة يوجه درساً تطبيقياً أن السلام في الإسلام هو القاعدة الثابتة، وأن الحرب هي الاستثناء من تلك القاعدة. ولا تفكير في الحرب ما دام الوصول إلى السلام مستطاعاً ولو بشق الأنفس. إنه صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرناً ألقم الذين يتهمون الإسلام بالتطرف والإرهاب والعداء للحضارة الإنسانية ألقمهم حجراً مخرساً ألسنتهم قائلاً لهم اخسئوا ولا تكلمون.

إن الإسلام دين يدعو إلى التحكم في المشاعر السلبية مثل الغضب الذي لا يصدر احتجاجاً على انتهاك حرمة من حرمات الله تعالى. فليس "الشديد الذي لا يملك نفسه عند الغضب وليس الشديد الذي لا يغلبه أحد" ذلك أن الصراع العضلي والمغالبة الجسدية ليس دليلاً على التفوق الحضاري بل القيم الإنسانية الرفيعة التي يدعو إليها الإسلام والسيرة النبوية وأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم هى القدوة في السلوك الإنساني السوي، والمشاعر التي توقر حرمة إنسانية الإنسان.

"روي أن أعرابياً جاءه صلى الله عليه وسلم يطلب منه شيئاً فأعطاه. ثم قال له: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا ولا أجملت. فغضب المسلمون وقاموا إليه. وأشار إليهم أن كفوا. ثم قام ودخل منزله، فأرسل أليه وزاده شيئاً. ثم قال له: أحسنت؟ قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. فقال له النبي: إنك قلت ما قلت آنفاً وفي نفس أصحابي من ذلك شيء. فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي، حتى يذهب ما في صدورهم عليك قال: نعم فلما كان الغد جاء فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه، فزعم أنه رضى أكذلك؟ قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مثلي ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت عليه فأتبعها

الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً فناداهم صاحبها،فقال لهم:خلوا بيني وبين ناقتي فإنى أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها، فأخذ من قمام[1] الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها[2] واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه، دخل النار"[3].

نحن أما حالة مرضية. حالة نفس مجبولة على الجحود ونكران الجميل وفي الوقت نفسه مطبوعة على الجشع والطمع بالإضافة إلى العنف، والغلظة في مخاطبة الناس، ولا سيما إذا كانت هذه المخاطبة مع الأسوة الحسنة والشخصية النموذجية للبشرية جمعاء صلى الله عليه وسلم.

فكيف كانت المعالجة والمداواة النبوية لمثل هذه الطبيعة البشرية التي لا تخلو منها مجتمع في جميع الأزمنة والأمكنة المختلفة. لا شك أن هنالك وسيلتين أو أسلوبين هما العقوبة أو التهذيب والمعالجة بالموعظة الحسنة.

ولما كان صلوات الله وسلامه عليه على خلق عظيم كما وصفه أصدق القائلين تبارك وتعالى لم يعرف العنف والغلظة والقسوة سبيلاً إلى قلبه، كان خلقه القرآن، والقرآن العظيم يقول: "لا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم" فصلت ٣٤. مثل هذه الشخصية بمثل هذه الركائز والأصول الربانية والأسس القرآنية من المحال أن تلجأ –في تربية النفوس المستفزة والطباع الحادة– إلى أسلوب العقاب البدني أو المعنوي، لأن العقاب مدعاة إلى الشرود والنفور كما تشرد الناقة من صاحبها إذا جرى خلفها جمع من الناس ويستحيل الإمساك بها إلا بالرفق واللين والكياسة.

والرسول الحليم صلى الله عليه وسلم عالج هذا الأعرابي الغليظ الطبع الفظ السجية بالأناة والكلمة الطيبة والقول المعروف، فأحال خشونته إلى لين، وجحوده وجشعه إلى قناعة وعفة، وعنفه وغضبه وشدته إلى هدوء وحلم وروية

---

(١) جمع قمامة: الكناسة.

(٢) ما يوضع على ظهر البعير.

(٣) رواه البزار

وسلاسة وانفعالات منضبطة. وهذا خلق الرحمة المهداة صلى الله عليه وسلم دفع ومقابلة السيئة بالحسنة، مجازاة المقاطعة بالوصل، والظلم بالعفو والسماح، والجهل بالإعراض، وتجهم الوجه وعبوسه بالابتسامة. هذه أخلاق الأسوة الحسنة للإنسانية، وعلى الإنسانية جمعاء الاقتداء بهذه الشخصية العظيمة. فالاقتداء بها كفيل بتحقيق المجتمع السوي المتحضر الذي يملك مقومات القوة والتقدم والازدهار في جميع فروع الحياة الدنيوية، وفي الوقت نفسه لديه أسباب الفوز بجنة عرضها السماوات والأرض بمشيئة خالق الموت والحياة جل وعلا.

وموقف الرسول صلوات الله وسلامه عليه مع هذا الأعرابي كان نموذجاً ومثالاً لحياته العملية والواقعية كلها ومع البشر جميعاً مهما اختلفت درجة تحضرهم وسواء كانوا مسلمين أوغير مسلمين. حياته صلى الله عليه وسلم كانت قوامها الحلم والأناة والرفق في الأمور كلها، والحديث الذي أخرجه الإمام البخاري في صحيحه دليل واحد وصفحة واحدة من صفحات من أنعم عليه رب السماوات والأرض الكبير المتعال بثناء عظيم لم ينله أحد من العالمين ذلك الثناء الذي شرفت به حروف الآية الرابعة من سورة القلم "وإنك لعلى خلق عظيم" ويقول الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله في تعليقه على هذه الآية "كلمة "على" للاستعلاء، تدل على أنه صلى الله عليه وسلم مستعل على هذه الأخلاق ومستول عليها. وأنه بالنسبة إلى هذه الأخلاق الجميلة كالولي بالنسبة إلى العبد، وكالأمير بالنسبة إلى المأمور"[1].

والآن إلى الحديث الصحيح الذي رواه البخاري "عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهط[2] من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام[3]عليكم. قالت: عائشة ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة قالت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مهلاً يا عائشة إن الله يحب

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٥

(٢) جماعة

(٣) الموت

الرفق في الأمر كله فقلت يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد قلت وعليكم".

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، نعم إن الله يحب الرفق في الأمر كله هكذا كانت أخلاقه عليه الصلاة والسلام، لا ينتقم لشخصه قط إلا إذا انتهكت حرمه من حرمات الله فحينئذ يكون الغضب تعبيرا عن بغض ما يبغض الله عز وجل، كما أن الأمر بالمعروف تعبير عن حب ما يحبه الله تعالى. كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه "وأصل هذا (أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) أن تكون محبة الإنسان للمعروف، وبغضه للمنكر، وإرادته لهذا وكراهيته لهذا موافقاً لحب الله وبغضه"[1] والرسول صلى الله عليه وسلم حين لا يغضب إلا لانتهاك حرمة من حرمات الله عز وجل يعلمنا -وهو الأسوة الحسنة- كيف نوظف انفعالاتنا لمرضاة الله تعالى، وليست تلبية واستجابة لأهوائنا النفسية. "وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ" القصص٥٠ أخرج البخاري عن عروة بن الزبير أيضاً "إن امرأة سرقت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الفتح، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أتكلمني في حد من حدود الله؟ قال: استغفر لي يا رسول الله فلما كان العشي[2] قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة ابنة محمد سرقت لقطعت يدها. ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك المرأة فقطعت يدها. فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت. قالت عائشة: فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم"[3] إن غضب رسول الله صلوات الله عليه وسلامه كان باعثه مجرد حديث في تعطيل حد من حدود الله

---

(١) الاستقامة لابن تيمية ج٢

(٢) آخر النهار.

(٣) فتح الباري ج٧

جل وعلا. وحدود الله تعالى منهي بنص الكتاب الاقتراب منها، وإذا كان الغضب لانتهاك حرمات الله تعالى، والاقتراب من حدوده مشروعاً، بل فريضة إسلامية. ولكن ينبغي أن يكون هذا الغضب في حدود الرفق والحلم بعيداً عن العنف والشطط والغلو كما جاء في الأثر عن بعض السلف وروده مرفوعاً، ذكره القاضي أبو يعلى في "المعتمد" "لا يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً بما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه"[1].

ذلك أن تصعيد الغضب ممنوع ومرفوض إسلامياً، لأن الغاضب إذا لم يكن غضبه ناشئاً وموافقاً لما يبغضه الله عز وجل فاقد رشده وصوابه، فما البال إذا اشتط وتمادى في غضبه لأهواء وأغراض شخصية، لا شك أن من يفعل ذلك معطل قواه العقلية والذهنية، وإذا تعطلت القدرات العقلية والفكرية لإنسان ما، فمن المؤكد أنه يريد أن يشعل الحريق في الكون كله، ليهلك الحرث والنسل. ويدمر الأخضر واليابس. لا يدري من يقتله ولم يقتل؟ الأطفال، النساء، الأبرياء، المرضى، الأصحاء كل هؤلاء ضحايا بلا جرم ارتكبوه، ولا إثم اقترفوه. إنهم ضحايا الغضب المجنون والانتقام الأحمق. الذى لا يردعه عقل، ولا يكبحه خلق، ولا يحجره دين، بل هوغضب الشارد في غيه، الضال فى جاهليته. نعم جاهليته، وإن ادعى الحضارة والدفاع عن حقوق الإنسان السليبة والحرص على حريات الشعوب.

أين هذه الهمجية والغوغائية والوحشية من حضارة الإسلام؟!، حضارة أصولها الرفق والحلم والتسامح. ونبذ العنف والغلو والتشدد والتنطع في كل شيء، يقول نبي الإسلام وأستاذ الإنسانية "إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه"[2] ويقول عليه

---

(١) الاستقامة لابن تيمية ج٢

(٢) حديث صحيح رواه مسلم

الصلاة والسلام "إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه"[1].

يقول الحق تبارك وتعالى "وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا" الحشر ٧" إن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الأسوة الحسنة بنص القرآن الكريم والرسول عليه الصلاة والسلام كان غضبه لانتهاك حرمات الله عز وجل كما أسلفنا القول في ذلك. فالغيرة على الزوجة مطلوبة شرعاً يقول صلوات الله وسلامه عليه "إن سعداً لغيور وأنا أغير من سعد، وإن الله أغير مني" [2]وغيرة الله عز وجل على محارمه بالنهي عن انتهاكها. وهذه غيرة مفروضة. ولولاها لاختلطت الأنساب.

نخلص مما سبق أن الغضب المشروع إسلامياً هو ما كان لنصرة الحق أو للدفاع عن غيرة، ونستطيع القول أنه يلزم الغضب في كل أمر لا يرضى الله عنه والغضب يترجم أو يتحول إلى قتال وجهاد في سبيل الله عز وجل وذلك دفاعاً عن أرض الإسلام من أعداء الإسلام المعتدين أو لاسترداد حقوق المسلمين السليبة من أيدي غاصبيها. فلم يشرع القتال في الإسلام إلا دفاعاً أو إجهاضاً لمخططات عدائية مبيتة.

والإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى يضع لنا الميزان السليم للغضب المذموم منه والممدوح، ومتى ينطلق الغضب من عقاله، ومتى يكبح ويكظم فيعرف الغضب المحمود بقوله "غضب ينتظر إشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحمية وينطفئ حيث يحسن الحلم، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده، وهو الوسط الذي وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال "خير الأمور أوسطها" فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة، وخسة النفس في احتمال الذل والضيم في غير محله فينبغي أن يعالج حتى يقوى غضبه. ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جره إلى

---

(١) المصدر السابق

(٢) رواه مسلم، وسعد هو سعد بن عبادة

التهور واقتحام الفواحش، فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ويقف على الوسط الحق"[1].

* * *

إذا كان علم النفس الحديث اعتبر التحكم في الذات وضبط السلوك الإنساني إحدى سمات الشخصية السوية، فإن الإسلام سبق هذا العلم بأربعة عشر قرناً، حيث وضع الدين الحنيف قواعد وأصول شخصية الفرد والمجتمع السوية، وإن هذا – بلا شك – إعجاز إسلامي في نمط من أنماط الشخصية السوية، وسنوالي الحديث في الصفحات القادمة بمشيئة الله في سمات شخصية سوية أخرى، كما يحددها علم النفس المعاصر المسبوق برؤية إسلامية في هذا المجال العلمي.

---

(١) إحياء علوم الدين ج٣

السمة الثانية

تحمل المسئولية وتقديرها

أكبر وأعظم وأجل مسئولية هي مسئولية وأمانة التوحيد، توحيد الألوهية والربوبية للمستحق لهذه الألوهية والربوبية، وهو المعبود بحق لا إله إلا الله هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا شريك ولا ند ولا نظير له في ملكه.

وتلي أمانة التوحيد، أمانة ومسئولية التكاليف الشرعية، أو القيام بواجبات العبودية لله جل جلاله وعز شأنه.

وخير من أدى الأمانة. أمانة التوحيد، والعبودية، بالإضافة إلى تبليغ الرسالة، رسالة الخالق سبحانه وتعالى إلى عباده هم الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم، فقد جاهدوا في الله حق جهاده في سبيل إخراج الناس من ظلمات الشرك والوثنية والضلالة وعبادة كل ما سوى الله تعالى إلى نور التوحيد والهداية والحق المبين، والقرآن الكريم يقص علينا صوراً مجيدة من حياة هؤلاء الصفوة المختارة عليهم الصلاة وأفضل التسليم، وكيف أنهم صبروا وصابروا ورابطوا فما ضعفوا وما وهنوا، وما استكانوا حيال التكذيب والسخرية والاتهام بالسحر مرة والجنون وبالكهانة والشعوذة أحياناً كثيرة، ويكفي أن خليل الله تعالى سيدنا إبراهيم ألقي في النار جزاء ممن دعاهم إلى ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، وقد جعل الله تعالى القدير على كل شيء النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه الصلاة و السلام.

وإن بني إسرائيل قد انفردوا دون الأمم بقتل أنبياء الله تعالى كفراً وجحوداً ونكراناً بنعم الله تعالى عليهم، والقرآن العظيم قد سجل عليهم هذه الخصال القبيحة والأخلاق الشريرة التي تأباها وتعافها الفطرة السليمة. فطرة الله التي فطر الناس عليها، نقرأ في الكتاب العزيز بعضاً من طباعهم هذه "وَإِذْ قُلْتُمْ يَا

مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا[1] وَقِثَّائِهَا[2] وَفُومِهَا[3] وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ". (البقرة ٦١).

كما أن كليم الله موسى عليه الصلاة والسلام هدد بالقتل من فرعون "وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ". (غافر ٢٦).

وهذا نبي الله شعيب عليه السلام هدده قومه بالرجم لأنه يدعوهم إلى دين الوحدانية وإلى العدل والإنصاف في الكيل والميزان "قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَابعزيز". (هود ٩١).

حتى الأب الثاني للبشر سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام لم ينج من تهديد قومه "قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ". (الشعراء ١١٦)

هؤلاء الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لم يرتكبوا إثماً أو جرماً في حق أحد، لم يصنعوا ما يلامون عليه سوى أنهم كانوا مخلصين فى تأدية الأمانة وتحمل مسئولية الرسالة المنوطة بهم فكانوا ينصحون قومهم ويوجهونهم إلى ما فيه صلاح وسعادة دنياهم وأخرتهم، فهل جزاء الإحسان والمعروف والخير هو الجحود والنكران والقتل أو التهديد بالقتل والرجم؛ هل معاداة ومصادمة الحق والعدل والنور متأصلة في طبيعة البشر. فكلما يأتيهم رسول أو نبي واجهوه بمثل ما واجه أجيالهم الأولون "كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ". (الذاريات ٥٢، ٥٣)

* * *

---

(١) نبات عشبي يقتذي به الإنسان.

(٢) نبات من الفصيلة القرعية مثل الخيار ولكنه أطول.

(٣) الحنطة أو الثوم

خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم حمل أمانة تبليغ رسالة ربه إلى خير أمة أخرجت إلى الناس فكان عليه الصلاة والسلام القدوة الحسنة والنموذج الحي في جميع الفضائل الخلقية، والكمالات الإنسانية ومنها ما نحن بصدده القيام بأعباء أعظم رسالة وأشرف مهمة أنه صلوات ربي وسلامه عليه الأسوة الطيبة لجميع المسئولين في جميع التبعات القيادية، وقد كان صلى الله عليه وسلم أولى وأحق بالمؤمن من نفسه التي بين جنبيه كما وصفه بذلك الحق تبارك وتعالى "النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ" (الأحزاب ٦)، "حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ" (التوبة ١٢٨).وفى سبيل هذه التبعات الجسام تبعات الرسالة وتبعات تبليغها وحرصه عليه الصلاة والسلام على أن يؤمن الناس كافة، لاقى المشاق والصعاب وكل أنواع الأذى والتعذيب المادي والنفسي والحرب المسلحة والقتال الضاري، انظر إلى ما لاقاه في الطائف حينما ذهب إليه لتبليغ رسالة ربه ويدعوهم إلى الله عز وجل "فلم يجد مأوى، ولا ناصراً، وآذوه مع ذلك أشد الأذى، ونالوا منه ما لم ينله من قومه، وكان مولاه زيد بن حارثة معه فأقام بينهم عشرة أيام لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلمه فقالوا اخرج من بلدنا وأغروا به سفهاءهم فوقفوا له سماطين[١]. وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شجاج في رأسه فانصرف راجعاً من الطائف إلى مكة محزوناً"[٢].

وإن ما أصابه صلى الله عليه وسلم في غزو أحد ليدمي القلوب وينزف الأكباد عندما "خلص المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجرحوا وجهه. وكسروا رباعيته[٣] اليمنى وكانت السفلى. وهشموا البيضة التي على رأسه ورموه بالحجارة حتى وقع لشقه. وسقط في حفرة من الحفر"[٤].

---

(١) صفين

(٢) زاد المعاد

(٣) السن بين الثنية والناب

(٤) المصدر السابق

إذا اكتفينا بهذين النموذجين من نماذج الإيذاء البدني العديدة، فإن هناك صوراً كثيرة أيضاً من صور الإيذاء النفسي مثل التكذيب والاتهام بالسحر والجنون والكهانة ومطالبته بمطالب تتعارض مع بشريته كرسول إلى البشر مثل "وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلا بَشَرًا رَسُولا" (الإسراء ٩٠-٩٣)

* * *

إن حياة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وحياة من سبقوه من إخوانه الذين شُرفوا بحمل أعظم وأجل رسالة، رسالة رب العالمين إلى عباده. هذه الحياة كانت نموذجاً وممارسة عملية لجميع المبادئ والقيم العليا كالصبر والحلم والتسامح، والشجاعة، والعدل، والحكمة وعدم اليأس من رحمة الله، والإيمان اليقيني بنصر الله تعالى المؤزر لكل من حارب الظلم والطغيان والفساد والإفساد في الأرض، إن مثل هذه الحياة التى تتسيدها تلك القيم الرفيعة لجديرة ليس بإيجاد الفرد والمجتمع السوي بمفهوم علم النفس المعاصر وحسب، وإنما خليقة وكفيلة بإخراج الأمة القدوة الصالحة لجميع أمم الأرض قاطبة. نعم إنها -فعلاً- أخرجت خير أمة للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله تعالى. وهي في الوقت نفسه الأمة الوسط يقول الحق تبارك وتعالى "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا" (البقرة ١٤٣). ومن معاني "الوسط العدل" والدليل[1] عليه الآية والخبر والشعر والمعنى، أما الآية فقوله تعالى "قَالَ أَوْسَطُهُمْ" (القلم ٢٨) أي أعدلهم، وأما الخبر فما روي عن الثوري عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم "أمة وسطا" قال عدلاً. وقال صلى الله عليه وسلم "خير الأمور أوسطها" أي أعدلها. وأما الشعر فقول زهير:

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم إذا أنزلت إحدى الليالي العظائم

وأما المعنى فقال الجوهري في الصحاح "وكذلك جعلناكم أمة وسطا، أي عدلاً فالأمة الإسلامية خير الأمم لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله. فهي أمة وسط لأنها عادلة ومن خصائص العدل الوسطية. لا إفراط ولا تفريط. لا إسراف ولا تقتير" "وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ" (الإسراء ٢٩). وفي الحديث "إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع".

* * *

إذن أن الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أدوا أمانة تبليغ ما أنزل الله تعالى أحسن ما يكون التبليغ. وجاهدوا في سبيل هذه الرسالة حق جهاده لم يريدوا من أحد جزاء ولا شكورا، وإنما جزاؤهم وأجرهم العظيم عند من يملك خزائن الأرض والسماوات وعلينا نحن أمة خاتم النبيين والمرسلين صلى الله عليه وسلم وهي خير أمة أخرجت للناس أن نؤدي مسئولياتنا التي تفرضها علينا خيرية هذه الأمة وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله تعالى وعبادته على الوجه المبين في الكتاب والسنة. وتحكيم العدل والإنصاف والوسطية في حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأسرية ما دمنا ننتمي إلى خير أمة، أمة الوسط لنحظى بشرف الشهادة على الناس وشرف شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم علينا.

والعبادة ليس مقصوراً مفهومها على إقامة الشعائر من صلاة وصيام وحج وغيرها. إنما العبادة الإسلامية تحتوي حياة المسلم جميعها، بل وتتغلغل في خصوصياته الشخصية، ولا يعني هذا التهوين من شأن إقامة الشعائر كالصلاة والصيام والحج والزكاة، وإنما نعني أن توظف وتستثمر وتسخر الحياة كلها لمرضاة الله تعالى عز وجل "قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين" الأنعام ١٦٢. ورحم الله تعالى شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية فقد فقه ماهية العبادة، كما بينها سيد البشر صلى الله عليه وسلم وذلك في أحاديثه القولية

والفعلية والتقريرية وحياته الجهادية والسياسية والاجتماعية والأسرية، وكذلك حياة صحابته والسلف الصالح والتابعين بإحسان إلى يوم الدين. يعرف ابن تيمية رضي الله عنه العبادة قائلاً هي "اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والصيام والحج وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك والبهائم، والدعاء والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة. وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين لله، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة، وذلك أن العبادة هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خلق الخلق لها، كما قال الله تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ"[1] وبهذا التعريف للعبادة -وهو التعريف المستنبط من حياة الأسوة الحسنة صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وحياة الذين آمنوا معه رضي الله تعالى عنهم- بهذا التعريف للعبادة تكتسب حياة المسلم مسئولية وتبعة والتزاماً مسئوليته تجاه ربه جل وعلا، ومسئولية نحو مجتمعه. ومسئولية نحو أسرته وأهله وعشيرته وذوي رحمه ومسئوليته تجاه الإنسانية عامة. وهذا ما يشير إليه الحديث الصحيح الذي رواه الإمام البخاري رضي الله عنه. فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ألا كلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام الأعظم الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته والرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسئول عن رعيته. والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده. وهي مسئولة عنهم. ألا فكلكم راعٍ. وكلكم مسئول عن رعيته". فهؤلاء جميعاً مسئولون أمام الله عز وجل تجاه من يتولون شئونهم ويقومون برعايتهم. ولاية ورعاية يرضى الله تعالى عنهما. وإلا جوزي المفرط والمقصر لأن هذه المسئولية أمانة، والأمانة حمل ثقيل تتفاوت درجة

---

(١) العبودية لابن تيمية ص٣١، ٣٢ ط دار البشير - الأردن

ثقلها كماً وكيفاً، بتفاوت درجة حجم المسئولية الملقاة على عاتق المسئول، فمسئولية الإمارة وهي رعاية شئون المسلمين عامة. تختلف كثيراً عما عداها من المسئوليات الأخرى. وهذا من نصيحة الرسول صلوات الله وسلامه عليه لصحابي جليل هو أبو ذر رضي الله تعالى عنه "إنها (أي الإمارة) أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها"[1]. وفي حديث آخر يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام مجيباً لمن سأله عن الساعة مبيناً ومشترطاً على من يتولى أمر المسلمين أن يكون أهلاً لها "إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قيل يا رسول الله وما إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"[2]. ورغم جسامة وخطورة أعباء الإمارة، فهذا لا يعني أن يتخلى عنها من كان جديراً بها. آخذاً بحقها، مؤدياً أمانتها، كما قال رسولنا الكريم صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومن أهم حقوق الإمارة وتأدية أمانتها مراعاة العدالة، كما قال ذلك الحق تبارك وتعلى في محكم تنزيله "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا" (النساء ٥٨). والإشارة في الآية الكريمة إلى التعبير "بالناس" تعني العدالة المطلقة كما أسلفنا القول في ذلك، وهي مسئولية الحاكم المسلم.

ولعدل الإسلام مطلقية وشمولية أخرى، وهي امتدادها لجميع مجالات الحياة الإنسانية السياسية منها والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والأسرية، فلم يقصر الإسلام تطبيق العدالة في مجال القضاء وفصل الخصومات، كما هو شأن القوانين الوضعية الغربية التي لم تعترف بالعدالة "إلا في ميدان القضاء حيث يعبر في اللغة الإنجليزية مثلاً عن القضاء والعدل بكلمة واحدة Justice ولكننا إذا تركنا ميدان القضاء إلى ميدان النظم السياسية والدستورية فلا نجد ذكراً

---

(١) رواه مسلم

(٢) رواه البخاري

للعدالة ولا إشارة إليها، ولا يذكرها رجال الفقه الدستوري ولا الباحثون في النظم السياسية بين خصائص النظام الديمقراطي أو غيره من الأنظمة"[1].

وتأكيداً لسياسة العدل في الأرض، حرم الإسلام الظلم بجميع صوره وأشكاله. ويكفي أنه جعل الشرك بالله تعالى -والعياذ بالله- ظلماً عظيماً فقال جل شأنه على لسان لقمان الحكيم "إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ" (لقمان ١٣). والإسلام دين سلام وآمن ولم يسمح بالحرب إلا إذا لحق بالمسلمين ظلم. قال سبحانه وتعالى "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ" (الحج ٣٩). والآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة التي تحض على العدل وتنهى عن الظلم ما أكثرها ليس محل ذكرها هنا.

* * *

ولقد تكفل الخليفة الأول للمسلمين أبو بكر الصديق رضي الله عنه بتحديد مسئولية الحاكم، وإن طاعة الحاكم مقيدة بطاعة الله تعالى ورسوله، فإن عصى فلا طاعة له، عملاً بالمبدأ الإسلامي المؤكد وهو لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. يقول الصديق بعد أن تم له البيعة خليفة وإماماً للمسلمين "إني وليت عليكم، ولست بخيركم إن أحسنت فتابعوني، وإن أسأت فقوموني. القوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي حتى آخذ له الحق أطيعوني ما أطعت الله ورسوله. فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم". وبديهي أن من طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الحكم والعمل بمقتضيات عدل الله عز وجل. وتجنب كل أشكال الظلم والطغيان.

ولأن الناس جميعاً بشر يصيبون ويخطئون إلا المعصوم صلوات الله وسلامه عليه. فقد شرع الله عز وجل مقومات تدعم بقاء العدل وتعمل على ديمومته، واستمراره. من هذه المقومات مبدأ الشورى. فالحاكم المسلم مها أوتي رجاحة عقل وسلامة منطق وقوة حجة لا ينفرد برأي بل عليه أن يستشير أهل

---

(١) في النظام السياسي للدولة الإسلامية د. محمد سليم العوا نقلاً عن الأستاذ الدكتور/ عبد الحميد متولي في كتاباته

الحل والعقد. اقتداء بسيد البشر عليه الصلاة والسلام الذي أمره رب العزة بذلك قائلاً له "وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ" (آل عمران ١٥٩). كذلك من المقومات التي تصون دولة العدل إقرار مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والحاكم ليس مستثناة أن يأمره أحد بالمعروف وينهاه عن المنكر. وهناك أيضاً النصيحة لله ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولأئمة المسلمين وعامتهم.

* * *

وفي هذا الفصل المتعلق بالمسئولية وتحملها ومعرفة قدرها كمكون من مكونات "الشخصية السوية" كما يقرر علم النفس الحديث، نستطيع أن نؤكد أن الإسلام تكفل -قبل أن يولد علم النفس بمدارسه ومذاهبه المختلفة بألف قرن، ولا نقول أربعة عشر قرناً- تكفل الإسلام ببيان السبيل المؤدي إلى الشخصية السوية والمطمئنة، ويتلخص هذا البيان الإسلامي في الالتزام بالمبادئ والعبادات التي شرعها دين الوحدانية، أو لم يسم الإسلام المسلم المنوط به الفرائض والواجبات "مكلفاً"، وللمكلف في مفهوم الإسلام شروط وجوب وصحة منها بلوغ سن الرشد والسلامة من المرض العقلي وبلوغ دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، أو ليس المكلف لغة هو "البالغ الذي تهيئه سنه وحاله لأن تجري عليه أحكام الشرع والقانون"[1].

إذ العبادات الإسلامية جميعها ولا سيما إذا كانت العبادة بالمعنى الشمولي الذي يستغرق حياة المسلم كلها كما سبق الإشارة إليه تكاليف ومسئوليات والتزامات على عاتق كل مسلم، عليه أن يؤديها بالصدق والأمانة، ولو كان صدق القول جالباً الضرر على النفس والوالدين والأقربين "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ" (النساء ١٣٥).

وليس المسئولية مقصورة على صدق الحديث، بل تتجاوزه إلى صدق العمل بمعنى أدائه على وجه يكتسب مرضاة الله عز وجل أولاً. وتقدير حجم المسئولية على كل من أوكل إليه رعاية شئونه وأحواله ثانياً. حيث من المعلوم

---

(١) المعجم الوسيط ج٢

المؤكد أن التبعة تتعاظم وتتضخم وتتسع بأهمية قدر المسئول وجلال منصبه، وعلو شأنه.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

ومما أثر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: "يا ليت أم عمر لم تلد عمر". وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على استشعاره – رضى الله عنه – جسامة تبعة الأمة والخلافة، ومدى ثقلها وخطورة أعبائها. وهي كما وصفها صلى الله عليه وسلم: "أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها".

فحياته كلها رضى الله عنه كانت شعوراً بهموم الرعية، تؤرق منامه وتقض مضجعه، إذا علم أن عضواً من أعضاء الكيان الإسلامي متألم بسبب الجوع أو العطش أو المرض. وإليك هذا الموقف العُمري، نعم العُمري فله رضي الله عنه وأرضاه مواقف عرفت به وعرف بها.

قال أسلم مولى عمر "قدم المدينة رفقة من تجار فنزلوا المصلى فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف هل لك أن نحرسهم الليلة؟ قال فباتا يحرسانهم. ويصليان. فسمع عمر بكاء صبي فتوجه نحوه فقال لأمه: اتقي الله تعالى، وأحسني إلى صبيك. ثم عاد إلى مكانه. فسمع بكاءه. فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك. ثم عاد إلى مكانه. فما كان آخر الليل سمع بكاء الصبي، فأتى إلى أمه فقال لها: ويحك إنك أم سوء. مالي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة من البكاء؟ فقالت: يا عبد الله إني أشغله عن الطعام فيأبى ذلك. قال: ولم؟. قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للمفطوم. قال: فكم عمر ابنك هذا؟ قالت: كذا وكذا شهر. فقال: ويحك لا تعجليه عن الفطام. فلما صلى "عمر" الصبح وهو لا يستبين للناس قراءته من البكاء. قال: بؤساً لعمر. كم قتل من أولاد المسلمين. ثم أمر مناديه فنادى: لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام وكتب بذلك إلى الآفاق"[1].

* * *

---

(١) ابن كثير ج٤

السمة الثالثة

تقبل الآخرين وإقامة علاقات على أساس المودة

١- في المجتمع المسلم:

حرص الإسلام على بناء المجتمع المسلم بناء ذا بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً. مجتمع يملك خصائص مقاومة أعاصر الحياة وأنوائها وتقلباتها المادية والنفسية، ولن يتحقق مثل هذا المجتمع في واقع الحياة العملية، إلا إذا كانت لبنات هذا المجتمع وهم الأفراد تجمعهم وتضمهم الأخوة الإيمانية، هذه الأخوة التي أكدها وأقرها الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز بقوله تعالى: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ" (الحجرات ١٠). نعم إن هذه الأخوة تتميز وتختلف اختلافاً كلياً عن الأخوة النسبية بعلوها وسموها عليها، ذلك أن أخوة الإيمان تكتسب وتنمو وتقوى وتستوي على سوقها بالحب والمودة والألفة المبرأة عن الهوى والأغراض المادية والدنيوية الزائلة، يقول معلم البشرية السلوك الحضاري والإنساني النظيف محمد صلى الله عليه وسلم .

"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[١] وقد قال بعض العلماء "ومن الإيمان أيضاً أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشر" وهنا تظهر أفضلية الأخوة الإيمانية على الأخوة الرحمية، فإن الأخوة المولودة عن طريق النسب، إذا ارتفع[٢] الإيمان عنها انتفى الحب، وقد ينشأ البُغض والكراهية والحقد التي تكون سبباً مباشراً لأن يقتل الأخ أخاه مثل قابيل الذي قتل أخاه هابيل. وكما ألقى أخوة يوسف أخاهم في الجب بدافع الحقد والكيد والبُغض.

---

(١) البخاري جـ١.

(٢) أي انتقص إيمانه مثل حديث: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن الحديث.

أما الأخوة الإيمانية القائمة على أساس الحب في الله والبُغض في الله وهو من أوثق عُرى الإيمان كما في الحديث الصحيح. هذه الأخوة من خصائصها الإيثار، والتضحية والسعي المخلص في سبيل إرضاء الأخ المؤمن. ويصور لنا القرآن الكريم صورة فريدة من واقع حياة المسلمين الأوائل، تجلت فيها المعاني العظيمة، والقيم الرفيعة لأخوة الإيمان، هذه الصورة الرائعة هي مشهد استقبال الأنصار لأخوانهم المهاجرين الذين أُخرجوا من أموالهم وديارهم دون جرم ارتكبوه أو إثم اقترفوه، إلا أن يقولوا ربنا الله، يقول الحق تبارك وتعالى في معرض الإشادة والثناء على هؤلاء الفئة المؤمنة الذين تبوأوا دار الهجرة والإيمان "وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (الحشر ٩). كما أن هذه الآية الكريمة تضمنت الكثير من القيم والأخلاق الإسلامية التي تميز بها الأنصار بعد أن اتخذ الإيمان قلوبهم وطناً ومستقراً. كما تبوأوا المدينة داراً للإيمان، من خصالهم الإيمانية المذكورة في الآية الكريمة حبهم المهاجرين الوافدين عليهم. وإيثارهم على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم ولو كانوا فقراء. عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأنصار "إن شئتم قسمت للمهاجرين من دوركم وأموالكم وقسمت لكم من الغنيمة، كما قسمت لهم وإن شئتم كان لهم الغنيمة ولكم دياركم وأموالكم فقالوا لا بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا ولا نشاركهم في الغنيمة"[1] فأنزل الله تعالى "ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة" هؤلاء هم أنصار اليوم الذين نالوا شرف الثناء العظيم من رب العرش العظيم. أما "أنصار" الأمس وقبل أن يدخلوا في دين الله أفواجاً فقد كانوا على شفى حفرة من النار فما الأنصار إلا الأوس والخزرج وقد استمر القتال الدموي بينهما مائة وعشرين عاماً قبل الإسلام على الرغم من أواصر الرحم والدم والأخوة التي كانت تجمع بين هاتين القبيلتين، إلا أن الأخوة الإيمانية استطاعت أن تطفئ نار الحقد والعداء والبغضاء التي أُريقت بسببها الدماء، خلال هذه المدة الطويلة. فقد ألف الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) مفاتيح الغيب للإمام الرازي ج ١٥

بين الأوس والخزرج واندمجا في وحدة اعتصمت بحبل الله المتين. تحت مُسمى إسلامي جديد هو "الأنصار" وذلك بفضل الله تعالى ونعمته التي مَنّ بها على الأنصار والمهاجرين يقول الحق تبارك وتعالى "وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا" (آل عمران ١٠٣).

* * *

لقد تأكد لنا – مما سبق – أن الأخوة الإيمانية تتميز بخصيصتين مهمتين أولاهما: عموميتها وشموليتها فلا تقتصر فاعليتها على أخوة النسب، وإنما تجتاز هذه الفاعلية الحدود الجغرافية، والحواجز الزمانية والمكانية. وثانيتهما: أن الأخوة الإيمانية ذات تأثير إيجابي وبناء. ومن مظاهر إيجابيتها خلق الإيثار على النفس. والحب في الله تعالى. وقد تجلى كل ذلك ظاهراً في خلق الأنصار حيال إخوانهم المهاجرين. ولاسيما خلق الإيثار الذي يشهد به خير الشاهدين وأصدق القائلين تباركت أسماؤه. وجلت قدرته أما أخوة النسب، فإذا كانت لها إيجابيات، فإن لها سلبيات أيضاً إلا من رحمه الله تعالى، وهذه لا يعني أننا نهون من شأن صلات الأرحام كلا. فإن الإسلام – لما كان دين الرحمة – حض على صلة الأرحام. وحذر من قطع هذه الصلة العظيمة يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام "خلق الله الخلق فلما فرغ منه، قامت الرحم، فأخذت بحقو[١] الرحمن فقال له: مه[٢] قالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب قال: فذاك"[٣] والآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة التى أثنت على واصل الرحم وتوعدت من يقطع رحمه أكثر من العد والحصر.

---

(١) الحقو: معقد الإزار.

(٢) اسم فعل معناه: اكفف.

(٣) رواه البخاري.

ومجمل القول إن الإسلام لم يترك شاردة ولا واردة تسهم وتدعم إقامة العلاقات الاجتماعية والأسرية إلا ودعا إليها ورغب فيها وأوصى بها. ولم يدع صغيرة ولا كبيرة تنال من هذه العلاقات إلا وشدد الزجر والتحذير منها.

فإذا كان علم النفس الحديث يزعم أنه قنن وحدد سمات ومكونات الشخصية السوية. وبذلك قد حقق ما لم تستطعه الأوائل والسوابق فإن هذا الزعم زعم بلا دليل علمي أو منطقي أو تاريخي إن أحداً لا يمكنه أن ينكر أو يجحف دور علم النفس الحديث في تشخيص وعلاج الكثير من أمراض النفس، وبعض أمراض الجسم الناتجة من الأمراض النفسية، وعلى الرغم من ذلك فإن أحداً لا يسعه إلا أن يؤكد أن الإسلام قد سبق علم النفس المعاصر بقرون عديدة في صنع حياة الفرد والمجتمع قوامها الحب والعدل والأمن والاستقرار والحرية حياة سوية معتدلة، لا إفراط فيها ولا تفريط فإذا التقى الإسلام وعلم النفس الحديث فيما يهدفان إليه، فذلك لا يحط من إسهام المسبوق، وإن كان الفضل كل الفضل للسابق. ولا يعرف الفضل لذوي الفصل إلا أولو الفضل.

٢- علاقة المسلمين بالآخرين:-

مازال حديثنا موصولاً عن السمة الثالثة من سمات الشخصية السوية فالمودة والألفة والثقة المتبادلة، كعنصر مكون للشخصية السوية قد انفرد واختص بها المجتمع المسلم، لأن هذا العنصر هو الأساس في بناء العلاقة المتينة التي تربط المسلمين بعضهم بعضاً. وقد سبق الحديث في هذا الشأن، ولم يبق من هذه السمة إلا جانب واحد وهو المتعلق بمدى تقبل المسلم الآخرين. وهذا الجانب رأيناه مناسباً للعلاقة بين المسلم وغيره من أهل الكتاب (اليهود والنصارى)

يقول الحق تبارك وتعالى موجهاً خطاب الأمر إلى نبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" (النحل ١٢٥). وفي آية أخرى يقول عز وجل "وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" (العنكبوت ٤٦). أي أن الدعوة إلى الإسلام دين الوحدانية ينبغي

أن تكون بالحوار الهادئ والجدال بأسلوب منطقي يكفل حق الاختلاف للطرف الآخر، فالإسلام يرفض جميع صور العنف والتطرف والغلظة والقسوة. بل يرفض أيضاً أي شكل فيه مساس بمشاعر الآخر. بل أكثر من ذلك فالإسلام مسئول عن توفير الأمان لهذا الطرف الآخر حتى يصل إلى موطنه ومأواه إذا جاء إلى المسلمين ليستمع إلى كتاب ربهم جل وعلا "[1]عن ابن عباس أنه قال: إن رجلاً من المشركين قال لعلي بن أبي طالب: إن أردنا أن نأتي الرسول بعد انقضاء هذا الأجل (يعني انقضاء الأشهر الحُرم) لسماع كلام الله، أو لحاجة أخرى فهل نُقتل؟ فقال علي: لا إن الله تعالى يقول "وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ" (التوبة ٦).

هذا موقف الإسلام من المشركين عبدة الأصنام الذين ليسوا من أهل كتاب، وهذا يؤكد سماحة الإسلام وأريحيته وعظمته التي تعامل كل من يعتنق ديناً وعقيدة غير دين الإسلام وعقيدته. فنبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم كان حريصاً شديد الحرص حرصاً يكاد[2] يودي بحياته عليه السلام على أن يدخل في الإسلام الناس كافة ليس حاجة أو افتقاراً للإسلام لمن يؤمن به، وإنما رأفة ورحمة وإشفاقاً على كل محروم شقى من نعمة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره، حلوه ومره.

١ – بين المسلمين واليهود:

وإن موقف الإسلام من اليهود أو النصارى لا يختلف إطلاقاً عن موقف هذا الدين من كل من يناوئه أو يعاديه أو يخاصمه، ولكن اليهود على الرغم من أنهم أمة تدين بكتاب سماوي وهو التوراة التي أنزلها الله تعالى على سيدنا موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وكان في الكتاب الذي يؤمنون به تكليف عليهم أن يؤمنوا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنهم لما جاءهم هذا

---

(١) مفاتيح الغيب للإمام الرازي.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً. الكهف (٦)

الرسول كفروا به حسداً وحقداً. على الرغم من أنهم انتظروه داعين النصر به على مخالفيهم قائلين "اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبي الأمي" وكانوا يقولون أيضاً: هذا نبي أظل زمانه ينصرنا عليكم "أي على مخالفيهم" ولقد صب الله تعالى عليهم لعنة جزاء كفرهم وعنادهم يقول أصدق القائلين: "وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ" (البقرة ٨٩). وقد زعموا – زوراً وبهتاناً – أن النبي الذي وعد به كتابهم سيكون من أبناء إسرائيل (يعقوب) وليس من أبناء إسماعيل عليه السلام. إن اصطفاء الأنبياء والرسل أمره موكول إلى الله وحده. وصدق الله العظيم القائل "اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ" (الأنعام ١٢٤).

وعلى الرغم من كل ما أسروه وأعلنوه من المكائد والأحقاد والشرور والمكر والتكذيب ضد الإسلام ونبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه. فإن رحمة الله للعالمين صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان أكبر وأعظم وأجل من ضلال الضالين وجهالة الجاهلين، فقد "روى ابن هشام أن النبي عليه الصلاة والسلام لم تمض له سوى مدة قليلة في المدينة حتى اجتمع له إسلام عامة أهل المدينة من العرب، ولم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها، عدا أفراداً من قبيلة الأوس. فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم. وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم[1]، هذه الوثيقة هي وثيقة موادعة ومسالمة لليهود ونستطيع أن نقول إنه اعتراف الدولة الإسلامية بحقوق اليهود الدينية في ممارسة شعائرهم في ظل ما توفره القيادة المسلمة من حرية وأمان كاملين، بمقتضى هذه الوثيقة لم يُفرض الإسلام على اليهود، ولم يرغموا تحت التهديد بالقتل على اعتناق دين الله الحنيف، وإنما ترك لهم النبي صلى الله عليه وسلم ممارسة شعائرهم وطقوسهم بحرية. وما نصت عليه الوثيقة خاصة ما يتعلق من الإقرار واعتراف

---

(١) فقه السيرة النبوية د. محمد سعيد رمضان البوطي.

الإسلام بالحرية الدينية. هو روح الإسلام وجوهره بنص القرآن الكريم وهو قوله تعالى: "لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ" (البقرة ٢٥٦). وقوله تعالى: "أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ" (يونس ٩٩). وقوله تعالى: "قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ" (هود ٢٨) وكما سبق أن قلنا فإن الإسلام أغنى وأكبر عن أن يجبر أحداً في الدخول في دينه، وقد قال موسى كليم الله تعالى عليه السلام لقومه: ".. إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد" (إبراهيم ٨). إلا أن الإنسانية جميعاً أحوج وأفقر ما تكون إلى الإسلام. ولا سيما في عصرنا الحالي الذي صار الظلم والطغيان والفساد والإفساد سيداً وملكاً عضوضاً.

إن اليهود عُوملوا بعدل الإسلام وحضارته وسماحته وسموه، فماذا كان جزاء معاملتهم بالإحسان؟.

القرآن الكريم ليس دستوراً للمسلمين وحسب، وإنما مُبين. لجميع الحلول الناجعة لجميع المشكلات والقضايا التي تعترض مجرى الحياة الإنسانية، وها هو يجيبنا على تساؤلنا الآنف الذكر ولم لا؟ أوليس القرآن كلام الله عز وجل خالق كل شيء العليم الخبير بكل شيء؟

إن اليهود جبلوا وطبعوا على نقض العهود، والنكول عن المواثيق والنكوص من وعودهم.

وإليك الدليل والبرهان من كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ. وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ. ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ" (البقرة ٨٣-٨٦).

"وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (البقرة ٩٣).

نعم إنهم جبلوا على نقض العهد والميثاق مع الله جلت قدرته. فلا عجب منهم إذا عادوا إلى نكثهم ونقضهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أقرهم على دينهم وضمن لهم الحفاظ على أنفسهم وأموالهم وممتلكاتهم في ظل الدولة الإسلامية التي لم تكره أحداً على اعتناق الإسلام، وعلى الرغم من كل ذلك فقد "قال إبن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر عن قتادة أن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاربوا فيما بين بدر وأحد. "قال ابن هشام: وذكر عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخرمة عن أبي عون قال: كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجَلَب[1] لها فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها. فجعلوا يريدونها على كشف وجهها. فأبت. فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها. فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً. وشدت اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود. فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع. فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه[2]" هذا ما كان من أمر يهود بني قينقاع ونقضهم للمعاهدة التي كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم. أما يهود بني النضير فقد حاولوا اغتيال رسول الله عليه الصلاة والسلام لما "خرج إليهم في سنة أربع بعد غزوة أحد يطلب مشاركتهم في دية قتيلين حسب المعاهدة[3]" ويهود بني قريظة كانوا قد شاركوا المشركين ضد المسلمين في غزوة الخندق. وكيف لا يحدث ذلك إن ما حدث من اليهود من نقضهم العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنبأنا إياه العليم الخبير،

---

(١) ما جُلب من إبل وغنم ومتاع للتجارة.

(٢) سيرة ابن هشام جـ٣.

(٣) ظلال القرآن جـ٥ سيد قطب.

في الآيات الكريمة التي سبق ذكرها كحجة دامغة على أن النكوص من العهود والمواثيق ديدنهم وطبيعة متأصلة تجري في دمائهم.

إن الإسلام لا يعادي ولا يخاصم أحداً بسبب اختلاف دينه مع دين الإسلام. فنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم ليس عليه إلا تبليغ الدعوة، ولم يُؤمر من قبل ربه بإرغام أحد على الدخول في الإسلام، وإنما أُمِر بالدفاع عن الإسلام والمسلمين عند الاعتداء عليهم فقط. فإذا انتفى العدوان وتحقق الأمن واحترمت العهود والمواثيق بين المسلمين وغيرهم، فإن السلام والمودة والتسامح من القيم التي يدعو إليها الإسلام لتعيش البشرية جمعاء في ظلها وتحت رايتها. ولقد كان الإسلام دائماً وعلى مختلف الحقب التاريخية قديماً وحديثاً دين المودة والتسامح ديناً يحبذ الأخوة الإنسانية ويحرص عليها. نقول الأخوة الإنسانية أي على الرغم من اختلاف الأديان والأعراق والأجناس والألوان وما نقوله ليس كلاماً أجوف، لا رصيد له في عالم الواقع المعيش، بل إنه حقائق مؤكدة شهد بها غير المسلمين، ولاسيما وقتما كان العالم الإسلامي يحكمه كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في ظل الخلافة الإسلامية.

وإليك هذه النماذج الحجة والتي تعتبر قليلاً من فضائل الحضارة الإسلامية المليئة بمثل هذه المُثل القدوة للإنسانية جميعاً:

- يقول م. فرانكو المؤرخ ومؤلف "الطائفة اليهودية في ظل الإمبراطورية العثمانية" الصادر عام ١٤٩٧.

"إن السلطان بايزيد الثاني" أصدر فرماناً عام ١٤٩٢ يأمر فيه جميع الولاة بحسن استقبال اليهود المطرودين من أسبانيا وعدم إساءة معاملتهم".

- أما و. س بارون أشهر المختصين في التاريخ اليهودي فيقول في كتابه "تاريخ اليهود الاجتماعي والديني، الصادر عام ١٩٣٧م "إنه بالمقارنة مع المذابح والمجازر الجماعية التي طفقت بعد عام ١٠٩٦ بوجه خاص. والتي تسود صفحة بعد أخرى من السجل التاريخي لليهود. فقد نعمت – الطوائف اليهودية في ظل الخلافة

الكبرى والدول التي أعقبتها – بدرجة من الأمان تُحسد عليها، ولم تعان من حملات الإبعاد والطرد، والهداية القسرية التي وسمت بميسمها الشطر الأكبر من تاريخ اليهود في أوروبا في العصر الوسيط.

- وها هو جاكوب المؤرخ في كتابه "اليهود في مصر وفلسطين" الصادر عام ١٩٢٠م يقول "إن الوزارة في عهد الفاطميين عهد بها عام ١٠٤٤ إلى رجل يهودي"(١).

هذا ولا نقول الحق ما شهد به الأعداء. وإنما نقول الحق ما شهد به كل صادق مُنصف محايد.

ذلك كان موقف الإسلام من اليهود، منذ صدر الإسلام يوم أن كانت الدولة الإسلامية لا تتجاوز حدودها الجزيرة العربية وحتى بلوغ هذه الدولة واتساع نفوذها حتى القارة الأوروبية. كان هذا الموقف الإسلامي تجاه اليهود موقف المسالمة والمودة والمعاهدة التي تعترف بممارسة جميع حقوقهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية. ولكنهم قابلوا المودة والمسالمة والمعاهدة بالجحود والعداء والخيانة والغدر!

٢- بين المسلمين والنصارى

فماذا كان موقف الإسلام من النصارى؟ إن القرآن الكريم أكد أولاً: أن النصارى هم أقرب مودة للمسلمين من اليهود الذين هم أشد عداوة للذين آمنوا: يقول عز وجل: "لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون" المائدة ٨٢.

---

(١) النصوص الثلاثة منقولة من مقال لـ د. فوزي فهمي نُشر بصحيفة الأهرام في ٢٠٠٢/١٢/٩م.

وفي آية أخرى خاطب القرآن الكريم النصارى بلقب – كما يقول الإمام فخر الدين الرازي رضي الله عنه – "يدل على أن قائله أراد المبالغة في تعظيم المخاطب وفي تطييب قلبه، وذلك إنما يُقال عند عدول الإنسان مع خصمه عن طريقة اللجاج والنزاع إلى طريقة طلب الإنصاف[1]" والآية الكريمة المشار إليها هي قوله تعالى: "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً" الآية. آل عمران٦٤. إن منهج الإسلام أو موقفه من أهل الكتاب سواء كانوا يهوداً أو نصارى هو منهج وموقف واحد لا يختلف ولا يتعدد ولا يتباين لأنه منهج العدل والإنصاف والمساواة، فليس في الإسلام معايير مزدوجة، وليس في الإسلام انحياز أو محاباة طرف على حق طرف آخر[2].

نقول إن شريعة الإسلام التي دعا إليها خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وطبقها وجعلها ممارسة حياتية في حياته عليه الصلاة والسلام هي الشريعة ذاتها التي سار على هديها وصراطها المستقيم الذين شرفهم وكرمهم الله عز وجل بحمل هذه الأمانة العظيمة، وهم الخلفاء الراشدون المهديون رضوان الله تعالى عليهم، وإذا أخذنا نموذجاً واحداً ومثالاً فريداً من عديد النماذج والأمثلة التي ميزت الشريعة الإسلامية عما سواها من الأنظمة الأرضية التي اخترعها الإنسان واتخذها "شريعة لحياته، بعد أن ترك شريعة الله تعالى وراء ظهره، فكان الشقاء والتعاسة لهذا الإنسان المسكين.

نقول هذا النموذج الذي نعرضه يؤكد بما لا يدع مجالاً لشك أو ريبة أي مكابر أو مجادل بالباطل – يؤكد وحدانية الشريعة الإسلامية التي لا تختلف أو تتناقض مع اختلاف الأزمنة أو الأمكنة، فلقد سبق القول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قدومه إلى المدينة بزمن يسير عقد موادعة ومصالحة مع اليهود ضمن لهم حقوقهم الأمنية والدينية والحياتية، وإن كان اليهود قد نقضوا هذا العهد خيانة منهم وحقداً وبغضاً للإسلام ولنبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، إن

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي ج٤.

(٢) يراجع العدل في منهج لا إله إلا الله في كتابنا لا إله إلا الله حضارة ومنهج حياة.

هذه الموادعة بجميع نصوصها وبنودها عقدها الخليفة الثاني للمسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولكن ليس مع اليهود ولكن مع نصارى إيلياء. وليس في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن في بيت المقدس بعد أن فتحه رضي الله تعالى عنه وهذا هو نص المعاهدة "هذا ما أعطى أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أمناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا يسكن كنائسهم ولا تُهدم. ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبانهم ولا من شيء من أموالهم".

إن هذا هو الإسلام شريعة ودستوراً ومنهجاً لا يختلف ولا يتناقض مع اختلاف الزمان أو المكان، لأن هذه الشريعة دائماً وأبداً وإلى قيام الساعة مصدرها كتاب الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد"، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكما أوردنا – آنفاً – بعض الآراء لبعض المؤرخين اليهود وشهادتهم في عدالة الإسلام التي شملت الكثير من اليهود، يطيب لنا كذلك أن نذكر شهادة بعض علماء الغرب وإشادتهم بالحضارة الإسلامية التي لم تعرف التعصب أو الاضطهاد، وإنما كان قوام هذه الحضارة التسامح نحو النصارى فقد "جاء في الأخبار النصرانية شهادة تؤيد مدى التسامح الإسلامي وهي شهادة "عيشويابه" الذي تولى كرسي البطريركية من سنة ٦٤٧-٦٥٧هـ. أذ كتب يقول "إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون إنهم ليسوا بأعداء للنصرانية. بل يمتدحون ملتنا ويوقرون قسيسينا وقديسينا ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا"[1].

"وقد كتب ميخائيل الأكبر وبطريق انطاكية اليعقوبي بعد أن سرد اضطهادات هرقل. "وهذا هو السبب في أن إله الانتقام الذي تفرد بالقوة والجبروت والذي يدبر دولة البشر، كما يشاء فيؤتيها من يشاء ويرفع الوضيع. لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا. وسلبوا أديارنا في

---

(١) روح الدين الإسلامي عفيف عبد الفتاح طبارة.

كافة ممتلكاتهم وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصونا على أيديهم من قبضة الروم"[1].

ويقول سير. ت. و.ارنولد في كتابه "الدعوة إلى الإسلام ترجمة حسن إبراهيم وزميليه "ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام فمحمد نفسه قد عقد حلفاً مع بعض القبائل المسيحية وأخذ على عائقه حمايتهم. ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم[2]".

---

(١) (٢) المصدر السابق.

السمة الرابعة

التعاون

وعدم الاستغناء عن الآخرين

الشخص السوي هو الذي يعتمد عليه الآخرون، ولا يستغنى هو عن الآخرين. يقول صلى الله عليه وسلم في حديث صحيح "المؤمن يألف ويؤلف" في هذا الحديث دعا عليه الصلاة والسلام إلى تبادل روح التآلف والألفة لأن الحب الذي يجمع بين اثنين. ولاسيما إذا كان هذا الحب لوجه الله تعالى عز وجل، حب مبرأ ومجرد من الأغراض الدنيوية، والأسباب المادية المصلحية التي تجمع بين كثير من الناس. فمثل هذا الحب من اجل مصالح وأغراض وقتية وبانقضاء تلك المصالح يذبل ويموت التآلف الوهمي.

نقول إن الحب المخلص الصافي النابع من الأخوة الإيمانية مثل هذا الحب كفيل بخلق التعاون والائتلاف والتآزر الذي أمر به الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز بقوله تعالى: " وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ" (المائدة ٢). فمثل هذا التعاون جدير بصنع الخير للمجتمع وتقدمه ورفاهيته في جميع مجالات الحياة، ونرى أن الآية الكريمة المُشار إليها حددت الهدف الإسلامي من التعاون، وهو البر والتقوى. محترزة عن الهدف الجاهلي من التعاون وهو الإثم والعدوان، فمن المعلوم أن التعاون في عصر ما قبل الإسلام كان موظفاً ومسخراً لخدمة أهداف الحمية أو العصبية الجاهلية، وهي ما حذرت منها الآية الكريمة "ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، ولنستمع إلى شاعر جاهلي لنعلم ماهية التعاون الجاهلي يقول:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

ومعنى هذا البيت نفسه تؤديه المقولة الجاهلية: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، أي لا تتقاعس عن نصرة أخيك حتى ولو كان ظالماً! إنها العصبية الحمقاء والحمية الجاهلية.

ولما جاء الإسلام كثورة على صور الظلم والباطل والشرك والوثنية كان حريا به، أن يبطل ويلغي كل دعاوى وتراث الجاهلية، وبدخول الناس في دين الله أفواجاً. كان محتما على الشعار الجاهلي: انصر أخاك ظالماً ومظلوماً أن يعتنق الإسلام، ويدخل حظيرة دين العدل والقسط والإنصاف. فقد أخرج الإمام البخاري رضي الله تعالى عنه عن أنس رضي الله عنه قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟ قال تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره".

وإذا عدنا إلى الآية الكريمة التي تضمنت الأمر بالتعاون القائم على أساسين مهمين هما: البر والتقوى، كما تضمنت النهي عن التعاون المبني على أساسين هما: الإثم والعدوان. إذا عدنا إلى هذه الآية الكريمة نجدها قبل أن تشرع التعاون الإسلامي وتنهي عن التعاون الجاهلي نهت عن الاعتداء على المشركين الصادين المسلمين عن المسجد الحرام، وهذا هو نص الآية الكريمة "وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ[1] شَنَآنُ[2] قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" (المائدة ٢). أي أن العداوة والبغضاء ليستا مسوغتين للاعتداء على المشركين ولو كانتا سبباً لمنع المسلمين من دخول المسجد الحرام! بل على المسلمين حينئذ اللجوء إلى الأسلوب الحضاري وهو التعاون على البر والتقوى أسلوب وسياسة عدم مقابلة سياسة الباطل بالإثم والعدوان بسياسة مثلها. أوليس الإسلام منذ أربعة عشر قرناً في موقفه الحضاري هذا يلقم حجراً كل من يناصبه العداء والحقد والكراهية من

---

(١) يحملنكم

(٢) عداوة

أباطرة العصر الحديث الذين يدعون – زوراً وبهتاناً – أنهم صُناع الحضارة الإنسانية، ومعلمو أمم الأرض قاطبة أصول الحريات والعدالة، وأبجديات التقدم ورقي السلوك الإنساني. إن على هؤلاء القوم أن يدعوا ما هم فيه من هراء وافتراء وأكاذيب وأباطيل، وعليهم بل خير لهم ولشعوبهم أن يتعلموا من حضارة الإسلام التعاون على البر والتقوى، ففي البر وتقوى الله عز وجل كل ما يسعد الإنسان وكل الحلول لمشاكله الحياتية، ومعاناته اليومية. وعليهم – قبل كل شيء – أن يقلعوا وينتهوا عن التعاون من أجل تدمير الشعوب البريئة وإفنائهم، بأسلحة يعلمون هم أنها مُحرمة دولياً، لأنها مصنوعة بأيديهم المخضبة بدماء شعوب أخرى بريئة أيضاً، إن على هؤلاء من مصاصي دماء الشعوب أن يوقنوا أن القسوة الشريرة والعنف المجنون هو شجاعة الجبناء. عليهم أن يحددوا- إن الإسلام الذي يرمونه – جهلاً وغباء وحماقة – بالعداء للآخرين، هوية هؤلاء الآخرين، هل هم أعداء الإسلام، إن نبي الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم لم يحمل أية ضغينة أو كراهية أو حقد لأعدائه أعداء الإسلام الذين كانوا يحاربونه وربما حاولوا قتله. كان صلوات الله وسلامه عليه يدعو لهؤلاء الأعداء. وفي إحدى الغزوات والمعركة بين المسلمين وأعدائهم محتدمة. والقتال ضار. والمنايا ناشبة أظفارها. حينئذ قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أن يلعن هؤلاء الأعداء الذين يقاتلونه، فماذا كان موقف رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ قال: كلمة تنبئ عن حب الإسلام للناس كافة حتى لو كان هؤلاء الناس مقاتليه قال نبي الرحمة: "إنما بُعثت رحمة ولم أُبعث لعاناً" نعم إنه صلى الله عليه وسلم بُعث رحمة ولم يُبعث لعاناً. وصدق الله العظيم الذي خاطبه بقوله تعالى: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" نعم رحمة للعالمين للناس كافة مسلمين ويهوداً ومسيحيين ووثنيين وغيرهم، وأخيراً أحب أن أهمس في آذان هؤلاء الذين يزعمون أنهم سادة العالم ولاسيما العالم الثالث، نعم أريد أن أبعث إليهم بكلمة لعلها توقظهم من غفلتهم التي هم فيها يعمهون، هذه الكلمة مستوحاة من الآية الكريمة الآنفة الذكر والتي هي من سورة المائدة.

أيها "السادة" إنكم وعلى الرغم من ادعائكم أنكم بلغتم شأواً عظيماً في التقدم والتمدن في جميع مجالات المعارف والفنون والابتكارات العلمية والتكنولوجية. فضلاً عن امتلاككم أسلحة الدمار والخراب الشامل والكامل، وغيرها من الأسلحة الكيماوية والجرثومية والنووية وغيرها وغيرها. إلا أنكم ما زلتم أسرى مكبلين بأغلال الفكر الجاهلي، فكر ما قبل ظهور الإسلام أتذكرون الشعار الجاهلي الذي سبق أن فندناه، وهو انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. هذا الشعار بأبعاده ومراميه الجاهلية، الذي يناصر النخوة الجاهلية الجائرة. والذي ألغاه الإسلام أو جعله شعوراً إسلامياً.

أنكم أيها "السادة" تعتنقون هذا الشعار الجاهلي، بل جعلتموه شعوراً وسياسة مطبقة ومنفذة. ألستم تساندون إسرائيل رغم عتوها وجبروتها وطغيانها على الشعب الفلسطيني؟ أوليست أمريكا تقدم كل المعونات المادية العسكرية والاقتصادية. رغم علم أمريكا أن إسرائيل تمارس ضد الشعب الفلسطيني جميع ألوان القتل والتدمير والظلم؟ فإسرائيل كصديقة لأمريكا. وعلى أمريكا أن تنصر إسرائيل سواء كانت ظالمة أو مظلومة. وهي دائماً ظالمة وهي أي هذه السياسة الظالمة ذات العقيدة الجاهلية هي نفسها ما يقصدها الشاعر الجاهلي السابق الذكر.

وهل أنا إلا من غزية أن غوت غويت وأن ترشد غزية أرشد

وطبقاً للسياسة الأمريكية المؤيدة لإسرائيل نقول:

وهل أنا إلا من إسرائيل إن غوت غويت

كذلك من الأسباب الحقيقية والمباشرة لإعلان أمريكا الحرب على العراق غير المشروعة. كان الاستمرار والتمادي الأمريكي في غواية إسرائيل وجبروتها فقد قال وزير خارجية الولايات المتحدة إن من أهداف ضرب العراق حماية إسرائيل! حماية إسرائيل التي تملك الأسلحة النووية والبيلوجية والكيمائية، والصواريخ ذات الرءوس النووية البعيدة المدى التي تصل إلى أقصى بقعة من الأرض العربية "حمايتها ممن؟ من الدول العربية التي لا تملك سلاحاً فعالاً

والمنفذة القانون الدولي لحظر الأسلحة النووية وإسرائيل التي تملك هذه الأسلحة المحظورة دولياً، ولا يحاسبها أحد. لأنها أيضاً تحت الرعاية الأمريكية.

أما الأسباب الأخرى التي تذرعت بها أمريكا للعدوان على العراق مثل الادعاء بامتلاك العراق أسلحة الدمار الشامل التي تملكها إسرائيل أيضاً. أو إيوائه الإرهابيين، أو نشر قيم الحرية والديمقراطية الغربية بين الشعب العراقي الذي يعيش تحت ظل حكم استبدادي. فكل هذه الحجج والدعاوى باطلة وكاذبة ومفتراة:-

أولاً: ادعاء العراق امتلاكه أسلحة الدمار الشامل، ثبت بطلانه وكذبه بشهادة مفتشي الأمم المتحدة. كما أكد هذا البطلان الغزاة الأمريكيون والبريطانيون، أثناء العداون وبعده. فإنهم لم يعثروا على هذه الأسلحة إطلاقاً داخل الأراضي العراقية، ومما يؤكد ويدعم ذلك أيضاً أن رئيس وزراء بريطانيا توني بلير لما سُئل في مجلس العموم البريطاني عن مدى صدق الزعم بوجود هذه الأسلحة وكان استجوابه مباشراً، أين أسلحة الدمار العراقية وهل وجدتموها أم لا؟ ارتبك توني بلير واضطرب وتلعثم وأسقط في يده وأخيراً لم يقل شيئاً.

ثانياً: الادعاء الأمريكي الآخر كأحد المبررات للهجوم ضد العراق. وهو إيواء العراق الإرهابيين. فهذه الفرية الكاذبة أيضاً، إنما هي من التداعيات النفسية والأعصاب المهترئة والمتعبة نتيجة أحداث ٩/١١. كما أن قتل الآلاف من المدنيين الابرياء من الاطفال والنساء والشيوخ وتدمير الآلاف من البيوت والمنازل على ساكنيها بآلاف الأطنان من القنابل المخصبة باليورانيوم. والقنابل العنقودية وغيرها من وسائل الإبادة التي لم تستثن مستشفى أو سوقاً تجارية أو مرفقاً مدنياً. هذه الحرب اللاإنسانية ليست حرباً ضد الإرهاب، وإنما هي إرهاب دولة متغطرسة. وهذا الرأي ليس رأياً لنا، حتى لا نتهم بالانحياز أو التعصب، إنما هو رأي وتحليل منطقي لأستاذ معروف بالوعي بقضايا العصر – وبمعاناة وعذابات الملايين ضحايا دولة لا تحكم إلا بالمعايير والمكاييل المزدوجة. إنه شهادة أستاذ ودكتور متمتع بثقافة فكرية وسياسة عميقة. ذلكم الأستاذ هو الدكتور

نعوم تشومسكي اليهودي الأمريكي الجنسية، فلنستمع إليه ماذا قال عندما سُئل، إذا كان الهجوم على أفغانستان يعد حرباً على الإرهاب؟

"تشومسكي: ربما يقتل الهجوم على أفغانستان الكثيرين من المدنيين الأبرياء، بل من الممكن أن يقتل أعداداً غفيرة، في بلاد فيها ملايين بالفعل على شفا الموت بسبب المجاعة فالقتل المتهور الأهوج لملايين من الأبرياء هو إرهاب وليس حرباً على الإرهاب[1]"

أو لم يتعرض شعب العراق لهذا القتل المتهور والأهوج – الذي أودى بحياة الآلاف من الأبرياء، أطفالاً ونساء، وشيوخاً، وتحت سمع وبصر العالم كله؟!! وما دمنا في الحديث عن الإرهاب والإرهابيين. بمفهوم الإرهاب وهو الاعتداء على المدنيين الأبرياء رغبة في القتل والإبادة دون مسوغ قومي أو شرعي أو دولي. فإن الولايات المتحدة الأمريكية يشملها هذا المفهوم للإرهاب فقد "أدانتها المحكمة الدولية لارتكابها الإرهاب الدولي بسبب الاستخدام غير المشروع للقوة لتحقيق أهداف سياسية كما قالت المحكمة، وأمرت الولايات المتحدة، بأن تضع حداً لهذه الجرائم وأن تدفع تعويضات كبيرة – وقد رفضت الولايات المتحدة بالطبع حكم المحكمة بازدراء وكان رد فعلها تصعيد الحرب الإرهابية على نيكاراجوا"[2].

ثالثاً: الادعاء الأمريكي الأخير ذريعة لشن الحرب ضد العراق. هو إنقاذ الشعب العراقي من حاكمه المستبد، ليعيش حراً تحت راية الديمقراطية هذا الادعاء باطل من أساسه، وهو كلمة حق أُريد بها باطل والحق أن الاستبداد السياسي والطغيان والقهر الاجتماعي والتصفية الجسدية والمعنوية والنفسية، والاعتقال التعسفي بزوار الفجر وغير زوار الفجر، كل ذلك صحيح ومُعترف به. ولكن هل الاستبداد استبداد حاكم ما بشعبه، يخول دولة أخرى أجنبية إسقاط هذا الحاكم بالقوة المسلحة وأن يكون ثمن هذا الإسقاط دماء الآلاف الأبرياء من

---

(١) ٩/١١ نعوم تشومسكي. ترجمة الأستاذ إبراهيم محمد إبراهيم. الشروق الدولية.

(٢) المصدر السابق

شعب لا حول له ولا قوة في التخلص من حاكم ديكتاتور أو بعبارة أخرى سوف أمنحك حريتك ولكن دعني أقتل أبناءك وأخوانك وآباءك وأطفالك ونساءك!!

هل هذا منطق يقبله إنسان سوي يفكر بعقل سليم قلنا إن وجود الاستبداد بجميع صوره البغيضة والمؤلمة في العراق حق لا جدال فيه. أما الباطل والإثم والخطيئة التي ارتكبتها الولايات المتحدة في حق الشعب العراقي والأمة العربية والإسلامية بعدوانها على العراق، فهو جشعها وأطماعها وغطرستها في الاستيلاء على ثروات العراق البترولية وسيطرتها على المنطقة العربية سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وثقافياً وتأكيد مساندتها وتأييدها لإسرائيل وحل المشكلة الفلسطينية حسب الأهواء والإملاءات والرغبات الأمريكية والإسرائيلية، هذه هي أهم أهداف واشنطن من الحرب ضد العراق – أهدافها الحقيقية بعد كشف الأقنعة والبراقع المزيفة الكاذبة.

ثم تعالوا نستبطن سياسة أمريكا الخارجية ونسبر أغوارها تجاه دول أخرى مثلنا تقع تحت مسمى العالم الثالث.

- نيكاراجوا دولة من دول أمريكا اللاتينية أُبتليت بحاكم ديكتاتور في السبعينيات يُدعى أناستاسيو سوموزا، تصدت جبهة وطنية للقضاء على هذا الديكتاتور تُسمى "الساندنيسنا" وذلك في أواخر السبعينيات، ولكن محاولة القضاء على هذا الديكتاتور المستبد مثل صدام حسين، أغضبت الولايات المتحدة. فماذا فعلت؟!! "حاولت الولايات المتحدة تثبيت ما أطلقت عليه السوموزية ولكن بدون سوموزا، والترجمة الفعلية لهذا هي الإبقاء على النظام الفاسد المستبد ولكن بدون "سوموزا" لم تنجح المحاولة، فحاول الرئيس "كارتر" الإبقاء على الحرس القومي كقاعدة للقوة الأمريكية[1]" "تميز الحرس القومي بالوحشية والسادية، في يونيو ١٩٧٩، مارس

---

(١) ماذا يريد العم سام: نعوم تشومسكي ترجمة الأستاذ عادل المعلم.

الحرس فظائعه ضد جبهة الساندنيستا. قصف مساكنهم في ماناجوا بالقنابل ليقتل عشرات الآلاف[١]"

"أرعب نجاح الساندنيستا في الإصلاح مخططي السياسة الأمريكية فقد خشوا – كما قال "جوزيه فيجرمه" أبو الديمقراطية في كوستاريكا – من أنه لأول مرة تقلدت السلطة في نيكارلجوا حكومة يهمها أمر الشعب[٢]".

هذا عن النموذج الأمريكي الذي يدافع ويؤيد الحكم الاستبدادي الذي يقتل عشرات الآلاف من المواطنين الأبرياء. وفي الوقت نفسه يعلن الحرب الضروس على الحكومة الوطنية التي يهمها أمر الشعب ومصالحه.

وتعالوا نر موقف الولايات المتحدة من حكومة ديمقراطية.

- "في جواتيمالا[٣] قامت ثورة في ١٩٤٤ أسست حكومة ديمقراطية واتخذت من "الصفقة الجديدة" لروزفلت نموذجاً وبدت بشائر نجاح التنمية الاقتصادية المستقلة. أثار ذلك زوبعة هيستيرية في واشنطن. صور كل من إيزنهاور ودلاس أن أمن الولايات المتحدة أصبح على المحك وأنها باتت في خطر، ما لم يتم التخلص من الفيروس. "وصفت مذكرة للمخابرات الأمريكية الموقف في جواتيمالا عام ١٩٥٢ بأنه مُعاد للمصالح الأمريكية". "أصبحت الأمور أسوأ عند نجاح استصلاح الأراضي. يهدد كل ذلك بأن تنتقل العدوى للدول المجاورة باختصار، أصبح الموقف فظيعاً بالنسبة للولايات المتحدة، مما يستحق انقلاباً عسكرياً. يحكم حتى الآن. مع تدخلنا من حين لآخر لضبط المسائل"

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

"أيدت واشنطن ديومونت، وأشاد به ريجان على أنه الرجل المتفاني في خدمة الديمقراطية نجح "مونت" في أوائل الثمانينيات في ذبح عشرات الآلاف، أغلبهم هنود يعيشون في المرتفعات، مع ما لا يُعد ولا يُحصى من ضحايا التعذيب والاغتصاب. وأُبيدت بعض المناطق على بكرة أبيها"[1].

وهذه هي أمريكا وموقفها المخزي من حكومة ديمقراطية، والتي قضت عليها بتدبير انقلاب عسكري وحاكم عميل لها يقتل عشرات الآلاف من مواطنيه. ويمارس التعذيب فيهم والاغتصاب ويبيد المناطق العديدة من بلاده.

إنها أمريكا التي سعت للإبقاء على ديكتاتورية حاكم ديكتاتور قضت عليه ثورة وطنية! فهل تفعل ذلك في العراق بعد رحيل حاكمها الديكتاتور؟!! عندنا مَثَل عربي يقول: الشيء من معدنه لا يستغرب!

* * *

بعد العدوان الأمريكي البريطاني الغاشم على شعب العراق، ترددت في الأفق الثقافي والإعلامي في مصر وخارج مصر ربما، ترددت أصوات تلقي باللائمة – على ما حدث في العراق – على الاستبداد. وأنه أس نكبتنا وخسارتنا، كأنهم- أعني أصحاب هذه الأصوات – يعزون الاحتلال الأجنبي للعراق إلى استبداد صدام حسين. وقد فندنا بطلان هذا الاتجاه بأدلة واقعية من تاريخ أمريكا، وهذا لا يعني أننا ندافع عن الاستبداد أياً كانت أشكاله ووجوهه القبيحة والمزرية. ذلك أن الاستبداد السياسي هو الأب الشرعي لجميع كوارثنا السياسية والعسكرية بدءاً من هزيمة ١٩٦٧[2]، إلى حرب العراق ضد إيران الإسلامية بإيعاز من أمريكا، إلى إبادة صدام الآلاف من الأكراد بأسلحة مُحرمة دولياً إلى غزو صدام الكويت بتحريض من واشنطن أيضاً. وما تبع هذا الغزو من احتلال أمريكي للخليج العربي.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) يراجع بالتفصيل كتابنا لا إله إلا الله محمد رسول الله حضارة ومنهج حياة-الناشر المكتب المصري الحديث.

نعم إن الاستبداد ممقوت تعافه الطبيعة البشرية السليمة، لأن الشعوب الحرة إنما تناضل وتضحي بالمال والنفس، لطرد الحاكم الأجنبي لتنعم بحياة الحرية، وليحكمها أحد أبنائها، لا لتستبدل بالمستعمر حكاماً من بني جلدتها. يسومونها سوء العذاب. ويذيقونها ألواناً من التعذيب النفسي والبدني، والسجن الانفرادي المُظلم، والاعتقال بدون محاكمات عادلة، ولكن علينا أن نسمي المسميات بأسمائها ونرجع الأسباب إلى مسبباتها الحقيقية، حتى نستطيع أن نعلم على أي أرض نحن عليها. الزعم الأنجلو أمريكي أن عدوانهم ضد العراق كان لتدمير أسلحة الدمار الشامل، أو لتطهير العراق من أوكار الإرهاب، أو للقضاء على حكم الاستبداد، كل هذه الافتراءات كاذبة وباطلة. وقد أثبتنا. ولله الحمد ذلك. ويبدو أن هذه الادعاءات ديدن المستعمرين جميعاً قديماً وحديثاً. فقد ادعى نابليون بونابرت عند غزوه مصر أنه إنما جاء إلى مصر لتحريرها من حكم المماليك، وإنجلترا عندما احتلت جزيرة الفاو العراقية عام ١٩١٤ زعمت أن احتلالها إنما لتحرير العراق من الحكم التركي، واستمر هذا الاحتلال أربعين عاماً. وهذه هي الولايات المتحدة وبريطانيا تعيدان مسوغات أسلافهما في اغتصاب سيادة وحقوق الشعوب الحرة وصدق الله العظيم "كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ" (البقرة ١١٨).

* * *

إذا عدنا إلى قيمة التعاون كسمة من سمات الشخصية السوية بمنظور علم النفس، وقد أسلفنا القول أن التعاون الذي يدعو إليه الإسلام تعاون بناء وإيجابي لخير المجتمع الإنساني بخلاف التعاون بالمفهوم الجاهلي. والآيات القرآنية التي تحض على هذا التعاون عديدة غير ما سبق ذكره فمنها قوله عز وجل "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا" (آل عمران ١٠٣). وقوله تعالى: "وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (آل عمران ٣٩). وقوله سبحانه "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ" (محمد ٧،٨) ويقول صلى الله عليه وسلم: "مثل المسلمين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" وغيره

من الأحاديث والآثار التي تدعو إلى التعاضد والتماسك والتآزر وعلى الرغم من كل ذلك. فإن الأمة الإسلامية والعربية وقفت موقف المتفرج العاجز السلبي حيال الهجوم الجبان على شعب العراق. وذلك بسبب تشتت كلمتهم وتفرق وحدتهم، وليت الأمر كان عند هذا الحد وكفى. بل لقد أيدنا الغزاة في قتلهم وإبادتهم أبناءنا وأطفالنا وإخواننا وشيوخنا، أو ليست طائراتهم لم تنطلق إلا من قواعدهم الرابضة في قلب أراضينا. وقد تمادى البعض في الشماتة والتشفي في كل ما لحق بأهلينا في العراق. إن شعب العراق الذي تخلينا عنه في محنته الدامية. وعلى الرغم من حصاره أكثر من عشر سنوات. وعلى الرغم من أسره وذله تحت حكم الفرد الاستبدادي على الرغم من كل ذلك أثبت بطولة واستبسالاً وتضحية بأسلحة متخلفة وبدائية بالنسبة لسلاح عدوه الأحدث والأعتى في العدد والعُدة. عدوه الذي توهم أنه سوف يستقبله شعب العراق بالأحضان والورود، إن شعب العراق البطل انهزم بشرف وعزة وكرامة. وليس جبناً مولياً دبره لعدوه المتغطرس.

ختاماً ينبغي علينا كعرب ومسلمين أن نعي درس العدوان على شعب الرافدين، لقد سقطت عاصمة الرشيد لتفرقنا وعدم استمساكنا بكتابنا العزيز وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام، وكذلك عدم استشعارنا بآلام وشكاوى إخواننا بالسهر والحُمى.

إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لو عثرت دابة في العراق لسُئل عمر عنها لما لم تمهد لها الطريق؟! ونحن رأينا بأعيننا الآلاف من المسلمين قتلى ومشوهين وجرحى، ولم نحرك ساكناً! فماذا نحن قائلون لمن لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء،، ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

السمة الخامسة

الطموح
وتحديد أهداف واقعية

إن القرآن الكريم في آيات كثيرة، وفي حديثه عن الإيمان والمؤمنين خاصة يقرن الإيمان بالعمل الصالح، أو بعبارة أدق يُعقب الإيمان بالعمل الصالح تالياً له، وهذه بعض من الآيات، على سبيل المثال لا الحصر:

"وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ" (البقرة ٢٥) "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (البقرة ٨٢)، "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ" (البقرة ٢٧٧) "إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ" (الحج ١٤) "لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ" (سبأ ٤) "وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ" (العصر ١-٣). والعمل الصالح ماهيته وحقيقته في المنظور الإسلامي – فيما نعتقد – مثل ماهية وحقيقة العبادة التي أفضنا القول فيها آنفاً وهي كل عمل أو قول يبتغي به مرضاة الله عز وجل ومحبته.

وتقييد العمل وتحديده بالصلاح – في النص القرآني السامي – لمن الإعجاز القرآني في دقة التعبير، ذلك أن العمل إذا لم يكن صالحاً. فلا يجوز أن يُسمى عملاً. بل هو عبث ولهو ومفسدة، ما دام لا مردود له نافع أو مفيد دنيوياً أو أخروياً، فالسعي لكسب العيش أو الرزق عمل صالح، بل جهاد في سبيل الله تعالى، فمن الذنوب ذنوب لا يغفرها إلا السعي لطلب الرزق. ويقول المبعوث رحمة للعالمين صلى الله عليه وسلم في معرض الحض على العمل الكسبي "لأن

يأخذ أحدكم أحبلاً فيأخذ حزمة من حطب فيبيع فيكف الله بها وجهه، خير من أن يسأل الناس أعطي أم منع"[1].

ذلك إن الإسلام يحرص كل الحرص على توفير الكرامة والعزة للإنسان، ولا شك أن العمل وسيلة لتحقيق الكرامة الآدمية. والرسول عليه الصلاة والسلام يشير – في الحديث السابق – إلى عمل ربما – في نظر الكثير من الناس – يعتبر أدنى الأعمال وأقلها شأناً. ولكنه لما كان مغنياً عن السؤال وإراقة ماء الوجه، كان خيراً.

وما دام المشترط – إسلامياً – في العمل أن يكون صالحاً. فينبغي أن يلتزم هذا العمل بقيم الإسلام وتعاليمه. ومن هذه القيم أن يتقن هذا العمل ويجَود طبقاً لوصية نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام وهي: "إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه" وهذا الإتقان الموصى به من قِبل المصطفى صلى الله عليه وسلم ربما يكون وليدا لإخلاص وناتجه. الإخلاص المطلوب في العبادة بنص القرآن الكريم في قوله عز وجل "وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء" البينة ٥. والعمل الصالح – كما سبق – عبادة.

سبحان الله! ما أعظم هذا الدين! إنه دائماً سابق القرون والعصور أو ليس يأمرنا أن يكون عملنا صالحاً. ونتقن إنتاجنا ونخلص فيه.

ولقد أثبت العصر الحديث أن المنتج الجيد سواء كان صناعياً أو زراعياً أو غذائياً أو غير ذلك سفير وإعلان ناجح لدولته على مستوى العالم. وهذا هو الإنتاج والصناعة اليابانية، لم يخل بيت منه في القارات الست. لماذا؟ لتميزه وجودته وتفوقه على منتجات الدول الأخرى.

إن اليابان الدولة غير المسلمة التزمت بشروط الإسلام، لأنها شروط يؤيدها العقل والمنطق والتفكير السليم فهي شروط في مصلحة الإنسان مسلماً أو غير مسلم وفي جميع الأزمنة والأمكنة.

---

(١) رواه البخاري

في عام ١٩٥٢ أُعلن استقلال اليابان بعد الاحتلال الأمريكي وفي العام نفسه توجه "ايتشير كُاواساكي" إلى نيودلهي سفيراً لبلده في الهند. وعند تقديم أوراق اعتماده لنهرو رئيس وزراء الهند كان مما قاله نهرو لسفير اليابان الجديد: "اليوم يمكن أن نصف إحدى الدول بأنها دولة عُظمى إذا كانت كبيرة العدد يبلغ سكانها مئات الملايين، وأن تكون هذه الدولة شاسعة المساحة مترامية الأطراف – وأن تكون غنية أيضاً بثروتها الطبيعية "وبناء على ذلك فإن القوى العظمى في العالم هي الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي والصين ومن المحتمل أن تكون الهند أيضاً، أما دولة مثل إنجلترا التي حققت ما حققته بفضل ازدهار تجارتها الخارجية فلا مكان لها بين القوى العظمى. وما ينطبق على انجلترا. ينطبق على اليابان"[١].

عندما اجتمع الجنرال ديجول مع "ايكيدا"[٢] رئيس وزراء اليابان في ذلك الوقت عام ١٩٦٤ قال ديجول "اليوم سوف أتحدث قليلاً مع بائع أجهزة الراديو الترانزستور"!!

إن حديث نهرو مع السفير الياباني ينُم عن الإحباط والتعجيز وربما التيئيس. أما الجنرال ديجول فقد كان مستهزئاً وساخراً برئيس الوزراء الياباني وصناعة اليابان منذ نحو أربعين عاماً. ولو كان نهرو وديجول على قيد الحياة إلى يومنا هذا بعد أن صارت اليابان أكبر قوة اقتصادية وصناعية. ورمزاً من رموز التقدم في جميع فروع الحياة وميادينها الفعالة – هل كان العملاقان السياسيان يظلان عند رأيهما حين استهانا بدولة اليابان في ذلك الوقت؟!!

ربما نجد الإجابة على هذا التساؤل عند جيمي كارتر رئيس الولايات المتحدة الأسبق عندما قال لمستر نوكودا رئيس وزراء اليابان الأسبق "لقد غزت

---

(١) بتصرف واختصار من أسرار تقدم اليابان د. عبد القادر حاتم

(٢) المصدر السابق

اليابان الولايات المتحدة فلا يوجد منزل أمريكي إلا به جهاز من الأجهزة الإليكترونية اليابانية أو سيارة يابانية"[1].

إن ما صنعته اليابان ليس مستحيلاً، فوق طاقة البشر أو معجزة أو محالاً أو عسيراً تحقيقها بل إن أي شعب أو أمة ممكن أن تفعل ما فعلته اليابان، بشرط التحلي بقيم الصبر والمثابرة والجلد وعدم اليأس.

فالصبر خُلق إسلامي. وهو نصف الإيمان كما في الحديث النبوي الصحيح ومن معاني الصبر الثبات على الشدائد والمكاره، مع اتخاذ الأسباب لإزالة هذه الشدائد والمكاره أي الجهاد المتواصل والدائم. جهاد النفس المطبوعة على حب الشهوات والتراخي والتكاسل عن أداء الواجبات والتبعات، واجبات وتبعات العبودية لخالق الإنسان والكون والحياة الواجب الوجود جل شأنه وتعالت أسماؤه. وجهاد كل مثبط محبط متواكل مستهتر بوسيلة كسبه المعيش، ومصدر رزقه ورزق أسرته، ولسبيل نهضة أمته ووطنه. غير مبال ولا ملتفت لقول الله تعالى جلت قدرته "وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (التوبة ١٠٥). ولا بقوله سبحانه "فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا" (الكهف ١١٠). ولما كان الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، منهاج ودستور الفوز والفلاح في الحياة الدنيوية والأخروية، حذرنا أصدق القائلين وأعدل الناطقين تبارك وتعالى في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد حذرنا سبحانه بأن عدم الالتزام بهذه القيم عاقبته الخسران المؤكد للإنسان. يقول الحق تبارك وتعالى بصيغة التأكيد والإيجاز البليغ في ثلاث آيات من سورة العصر "وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ" (العصر ١-٣).

* * *

---

(١) المصدر السابق

إذا كان للحضارة وجهان أو عنصران. مادي ومعنوي. فإن الإسلام قد أعطى الرعاية والأولوية للجانب المعنوي والروحي للحضارة، مثل: التوحيد في العقيدة، والعدل في التشريع. والإيثار في الأخلاق. لكنه لم يهمل الجانب المادي بل حض عليه أيضاً، وذلك تواكباً وتمشياً مما خلق منه الإنسان وهو المادة، ونفخة الروح الإلهية. يقول عز وجل مخاطباً ملائكته الكرام "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين" الحجر ٢٩. والجانب المادي من الحضارة ينحصر في جميع صور العمران ومظاهره الاقتصادية. والصناعية، والتجارية، والعسكرية – وغيرها.

ومن الإعجاز القرآني – أنه – كما قلنا سابقاً – جمع الإيمان والعمل الصالح في العديد من آياته المحكمات. وإنما نقول الإعجاز القرآني. حيث إن العمل الصالح مستغرق جميع المكونات المعنوية والمادية للحضارة الإنسانية التي تتوحد وتندمج وتمتزج فيها الإيمان والعمل الصالح، لا ينفصلان بل يشد أحدهما الآخر. ولم يكتف الإسلام بذلك وحسب، وإنما جعل العمل مرتبطاً بالحياة لا يفارقها يقول أستاذ الإنسانية الأكبر عليه الصلاة والسلام، عن أنس رضي الله عنه قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل"[1].

وفي الحديث بالإضافة إلى الحرص على العمل والاستمساك به ما يوحي إلى التخلق بالإيمان في رحمة الله تعالى. والإقلاع عن اليأس والتيئيس والإحباط لأن هذه المشاعر السلبية. منهي عنها إسلامياً. لتشكيكها في الرحمة الربانية الحانية على عبادة، يقول عز وجل "ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون" الحجر ٥٦. ويقول سبحانه وتعالى: "إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ" (يوسف ٨٧).

---

(١) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه في مسنده.

وروح الله تعالى – عند علماء التفسير: رحمة الله. أو فضل الله. أو فَرَج الله"[1]. وقال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى ".. واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال، أو غير عالم بجميع المعلومات، وليس بكريم بل هو بخيل. وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر"[2].

* * *

نخلص مما تقدم أن دعوة الإسلام إلى العمل تعتمد أو تتركز على أولاً: المعنى بالعمل – إسلامياً – هو العمل الصالح. ثانياً: إن العامل عليه أن يتقن عمله ويحرص على إجادته وتحسينه. ثالثاً: التخلق بفضيلة الصبر والتمسك به قيمة إسلامية في جميع نشاطات المسلم الحياتية. رابعاً: اليأس والتيئيس والإحباط من السلبيات التي نهى عنها الإسلام. خامساً: الإصرار وعدم التخلي أو التكاسل عن الممارسة العملية ما دام في الإنسان عرق ينبض بالحياة.

ولقد أسلفنا القول مبينين الإعجاز القرآني في اقتران ومصاحبة العمل بالإيمان مؤتلفين ومتوادين في الكثير والعديد من آيات الكتاب الحكيم، كذلك فإن القرآن الكريم لا يدع العمل إلا مقيداً بالصلاح كنعت لازم للعمل. وآنس في ذلك أيضاً إعجازاً قرآنياً آخر. حيث إن كل عمل لا يلزم أن يكون صالحاً نافعاً، كما أن كل علم لا يلزم أن يكون نافعاً وإلا لما استعاذ المعلم الأكبر صلى الله عليه وسلم من علم لا ينفع ومن قول لا يُسمع. ولقد أثبت العصر الحديث عملياً وتطبيقياً مظاهر وشواهد ونتائج العلوم المهلكة، والأعمال المجنونة التي برع وتفنن فيها شياطين الإنس في هذا العصر. بدءاً من قنبلتي هيروشيما ونجازاكي التي حصدتا الآلاف من البشر ومخلفتين الأمراض والأوبئة للناجين من هذه الكارثة الوحشية. وليت الإنسان الذي تجرد من إنسانيته وآدميته، وتفوق على حيوانية حيوان الغاب المفترس اكتفى وقنع بهذا الجبروت، بل توغل وتمادى في

---

(١) مفاتيح الغيب ج ٩

(٢) المصدر السابق

صنع أسلحة أشد تدميراً وأعنف هلاكاً وإبادة لأخيه الإنسان. ولقد تنبأ بهذا "التقدم" في صنع الشرور والآثام التي تقتل جميع مظاهر الحياة البهيجة على هذا الكون الذي خلقه الله عز وجل ليبني فيه الإنسان حضارة تقوم على الحق والعدل والسلام والحرية المسئولة – نقول تنبأ "البروفسور" م.ى. اولى فنيت الأستاذ بجامعة برمنجهام وعضو الهيئة الصناعية في إعداد القنبلة الذرية بعد حادثي هيروشيما ونجازاكي "قائلاً" "وأنا على يقين أنه سيظهر في مدة قصيرة على مسمع العالم قنابل تفوق القنابل الأولى بعشرة آلاف طن في قوة الانفجار. وستليها قنابل قوتها مليون طن. ولا ينفع في التوقي منها. دفاع أو احتياط. وإن ست قنابل من هذا القبيل تكفي لتدمير إنجلترا على بكرة أبيها"[1]. ولقد صدق في تنبئه لمستقبل الشر لبني الإنسان. نقول صدق هذا الذي أسهم في صنع قنبلة كانت بدائية بالقياس إلى وسائل التدمير من القنابل التي نرى آثارها البشعة في عصرنا هذا: ولا نعجب ما دام الإنسان قد استبدل بعبودية الله عز وجل عبودية شهوات الطمع والجشع. والاستكبار والإفساد في الأرض!!.

* * *

نعود إلى علم وعمل الإسلام اللذين يعدان من الشروط والأركان الجوهرية لبناء حضارة الإسلام،وتحقيق طموحات الإنسانية وتطلعاتها نحو حياة أفضل وأكرم واجمل، فما دام شرط العمل والعلم في الإسلام أن يكون العمل صالحاً. والعلم نافعاً. فمن المؤكد أن تكون حضارة الإسلام حضارة حافزة للحياة للإنسانية جمعاء، على الرغم من اختلاف الدين والجنس والعرق واللون والوطن. ولن تكون لهذه الحضارة وجود فعلي إلا إذا أخذت بالنصيب الوافر في جميع المعارف والعلوم التقنية، والمعلوماتية، والفضائية، كما أن إعداد القوة العسكرية بأحدث الأسلحة. والذخائر والمعدات التي تناسب العصر فريضة إسلامية لحماية الديار الإسلامية من اعتداء المعتدين الذين يتربصون بثروات المسلمين. وليست القوة العسكرية للاعتداء في المنظور الإسلامي أو لاغتصاب

---

(١) ظلال القرآن – سيد قطب جـ ٥

أراضي وحقوق الأبرياء المسالمين، لأن القاعدة الإسلامية في العلاقات الدولية هى السلام والحرب هي الاستثناء من هذه القاعدة ، إذن العلم والعمل بماهيتهما الإسلامية وسيلتان لبناء وتنمية الحياة الإنسانية، وتسخير ما في الكون كله لخدمة ومصلحة الإنسان وليس لتدمير الإنسان وإفنائه وتشويه الأجنة في بطون الأمهات. ولذلك كان العلم مثل العمل من القيم العظيمة التي حرص الإسلام على الدعوة أليه والحض عليه ولشرف العلم وسموه ورفعة شأنه شرّف وكرّم أبو البشر سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام – بعد أن خلقه الله وسواه ونفخ فيه من روحه – بتعليم من خالقه ومبدعه جلت قدرته وتعالت أسماؤه مميزاً إياه على ملائكته الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون. يقول الحق تبارك وتعالى "وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ" (البقرة ٣١-٣٣). ولقد امتد التكريم الإلهي لأنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام بالعلم وبالكثير من نعمه العظيمة وامتنانه عليهم بالرسالة والنبوة أيضاً. فهذا أبو الأنبياء وخليل الله تعالى سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعو أباه إلى دين الوحدانية مذكراً إياه. أن الله تعالى آتاه علماً لم يؤت أباه "يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا" (مريم ٤٣). وهذا يوسف الصديق عليه السلام الذي آتاه الله عز وجل حكماً وعلماً يقول جل وعلا "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ" (يوسف ٢٢). ويقول سبحانه: "وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ" (الأنبياء ٧٤). ويقول جلت كلمته "وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ" (النمل ١٥).

وذلكم مسك الختام، خاتم الأنبياء والمرسلين، وسيد الأولين والآخرين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم النبي الأمي.

يكفيك بالعلم في الأمى معجزة : في العالمين والتأديب في اليُتم

نعم فقد علمه ربه وأدبه فأحسن تعليمه وتأديبه. يقول الحق تبارك وتعالى "وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا" (النساء ١١٣). ويقول الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله مفسراً قوله تعالى " وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا" وهذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل كما قال تعالى "وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا" (الإسراء ٨٥) ونصيب الشخص الواحد من علوم جميع الخلق يكون قليلاً. ثم إنه سمى ذلك "عظيماً حيث قال تعالى "وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا" وسمى جميع الدنيا قليلاً حيث قال تعالى: "قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ" (النساء ٧٧). وذلك يدل على غاية شرف العلم[1].

ومن كمال فضيلة العلم، أنه قد كُرم من قبل العليم القدير وذلك في أولى الآيات القرآنية التي نزلت على المبعوث رحمة للعالمين في قوله تعالى: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" (العلق ١-٥) كذلك فإن القرآن الكريم لم يكتف ببيان فضل العلم وشرفه. بل بين فضل العلماء مثنياً عليهم لأنهم بعلمهم يميزون الحق من الباطل، والهدى من الضلال. يقول تبارك وتعالى "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ" (آل عمران ٧). وقوله تعالى "شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (آل عمران ١٨).

* * *

والعلم المعنى والمقصود - إسلامياً - علمان، أحدهما هو العلم بالكتاب والسنة، وهو العلم الشرعي "الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف من أمر عبادته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمره. وتنزيهه عن النقائص، ومدار ذلك على التفسير والحديث والفقه" وثانيهما: هو العلم

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٥

المسمى بلغة العصر الحديث – بالعلم الذي يخضع نتائجه للمشاهدة والتجربة عن طريق الحواس أو المجهر "التليسكوب" ولقد دعا الإسلام إلى هذا العلم لأنه – أولاً – وسيلة فعالة لإعمال العقل، وتنشيط النظر الفكري، يقول الحق تبارك وتعالى "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ" (فاطر ٢٧، ٢٨). ويقول عز وجل "فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ" (الطارق ٥-٧) وثانياً: لأنه دعوة إلى معرفة الآيات الكونية الدالة على قدرة الله سبحانه وحكمته وتدبيره وثالثاً: لأنه يحث الإنسان على تسخير واستخدام آيات الله تعالى ومخلوقاته الكونية من جبال ومياه ودواب وأنعام وما في باطن الأرض من ثروات، استخدام كل ذلك في صنع الحياة الإنسانية والعمل على رقيها وتنميتها في جميع المجالات السياسية والاقتصادية، والاجتماعية.

وتقسيمنا للعلم الإسلامي إلى علم شرعي وتقني إنما تقسيم نظري. لأنه في واقع الحضارة الإسلامية لا ينفصل هذان العلمان، بل إنهما متآلفان متآخيان. ذلك أن مفردات هذه الحضارة كل لا يتجزأ، فلا تفوق في جانب منها. مقابل تراجع وتخلف في جانب آخر، وهذه من البواعث الفعالة التي حققت خيرية الأمة الإسلامية على الأمم الأخرى على مسرح الحياة الواقعية لأكثر من ثلاثة عشر قرنا، إبان الخلافة الإسلامية. فلقد كان المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت زاخراً بالعلماء ورثة الأنبياء أمثال مالك بن أنس وأبو حنيفة والشافعي، وأحمد بن حنبل، وابن تيمية وابن القيم والفخر الرازي والألوسى والقرطبي والطبري وابن كثير والغزالي والبخاري وابن ماجه والترمذي، والنسائي، وابن رشد وغيرهم وغيرهم.

وفي العلوم التجريبية، والرياضية والطبية والفلكية، والكيميائية وغيرها كان للعلماء المسلمين قصب السبق. على أوروبا المدينة لعلم هؤلاء العلماء، في هذه المجالات.

- فهذا هو محمد بن موسى (٧٨٠-٨٥٠) المعروف بالخوارزمي الذي وضع أصول علم الجبر، واقتبس أصوله هذه ديوفانتوس اليوناني من رجال القرن الثالث. "وقد كتب الخوارزمي رسائل قيمة في علوم خمسة: كتب عن الأرقام الهندية، وجمع أزياجاً فلكية، ظلت قروناً كثيرة بعد أن روجعت في بلاد الأندلس الإسلامية هي المعمول به في جميع البلاد الممتدة من قرطبة إلى شنغهاي في الصين. وهو الذي وضع أقدم الجداول المعروفة في حساب المثلثات. واشترك مع تسعة وثلاثين من العلماء في وضع موسوعة جغرافية للخليفة المأمون. وأورد في كتابه حساب الجبر والمقابلة حلولاً تحليلية وهندسية لمعادلات الدرجة الثانية ولقد صاغ الأصل العربي لهذا الكتاب لكن جرارد الكريموتائي ترجمه في القرن الثاني عشر. وظلت ترجمته تدرس في الجامعات الأوروبية حتى القرن السادس عشر. ومنه أخذ الغرب كلمة الجبر. وسموا بها ذلك العلم المعروف"[1].

- في مجال الطب اشتهر أبو بكر محمد الرازي (٨٤٤-٩٢٦) "اشتهر بين الأوروبيين باسم رازيس RHASES وكان أبو بكر كمعظم كبار العلماء والشعراء في وقته فارسياً يكتب بالعربية، وكان مولده في بلدة الرى القريبة من طهران. ودرس الكيمياء بنوعيها والطب في بغداد، وألف ١٣١ كتاباً في عشرين مجلداً ويبحث في كل فرع من فروع الطب، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية وسمى Liber continens وأغلب الظن أنه ظل عدة قرون أعظم الكتب الطبية مكانة، وأهم مرجع لهذا العلم في بلاد الرجل الأبيض، وكان من الكتب التسعة التى تتألف منها مكتبة الكلية الطبية في جامعة باريس عام ١٣٩٤، وكانت رسالته

---

(١) بتصرف من قصة الحضارة لديورانت ترجمة الأستاذ محمد بدران جـ ٧.

في الجدري والحصبة آية في الملاحظة المباشرة، والتحليل الدقيق، كما كانت أولى الدراسات العلمية الصحيحة للأمراض المعدية، وفي وسعنا أن نحكم على ما كان لهذه الرسالة من بالغ الأثر واتساع الشهرة، إذا عرفنا أنها طُبعت باللغة الإنجليزية أربعين مرة. بين عامي ١٤٤٨، ١٨٦٦"[١].

- وفي علم الكيمياء، نبغ جابر بن حيان (٧٠٢-٧٦٥) وقد عُرف عند الأوروبيين باسم جبير GEBIR "وكان جابر ابن عقار كوفي اشتغل بالطب ولكنه كان يقضي معظم وقته مع الأنابيق والبوادق ويعزو إليه المؤرخون مائة من المؤلفات أو أكثر من مائة ولكنها في الواقع من عمل مؤلفين مجهولين عاش معظمهم في القرن العاشر وقد ترجم كثير من هذه المؤلفات إلى اللغة اللاتينية وكان لها الفضل في تقدم علم الكيمياء في أوروبا"[٢].

- وفي علوم الرياضيات والطبيعيات كان أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم من أهم علماء العرب فيها "وكانت له مع ذلك مشاركة في الطب. وفي علوم الأوائل الأخرى. وُلد عام ٣٥٤هـ /٩٦٥م وأهم مصنفاته في الطبيعيات (كتاب المناظر) وقد نشر رسنر RISNER ترجماته اللاتينية عام ١٥٧٢ في مدينة بال مع رسالة في الشفق. وكان قد نقل هذه الرسالة الأخيرة إلى اللاتينية جيرارد القرموني GERARDE CREMONE وكان لكتاب المناظر أثر بالغ في معارف الغربيين لهذا العلم في العصور الوسطى من روجر بيكون حتى كيلر. ومن مصنفات ابن الهيثم في"كيفيات الأظلال نشر له فيدمان WIEDMANN ترجمة ألمانية مختصرة في المرايا المحرقة بالقطوع نشره بالألمانية هيبرغ GEIBERG.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر نفسه.

في المرايا المحرقة بالدوائر نقله إلى الألمانية فيدمان في السلسلة نفسها صـ ٢٠١-٢٣٧"[١]. وغيرهم كثير من الذين أدلوا بدلوهم وأسهموا بقسط وافر في بناء الحضارة العلمية لدولة الإسلام التي أثرت بالغ التأثير في الثقافة والحضارة الغربية وما نقوله هذا لا يدفعنا إليه انحيازنا أو تعصبنا للإسلام أو هو ادعاء لا يدعمه ولا يستند إلى علم أو واقع فعلي مشهود، كلا بل أن قولنا ذلك نزر يسير مما قاله وأكده كثير من علماء أوروبا المنصفين. فلتستمع إلى العلامة الدكتور (جوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب) ماذا قال بشأن الحضارة الإسلامية وإن كان يطلق على المسلمين مسمى العرب فلا بأس ولا تثريب عليه. لأنه مما لا جدال ولا نزاع فيه أن العرب قبل الإسلام كانوا أمة أمية لا حظ لها في القراءة والكتابة، وإنما الفضل كل الفضل للإسلام الذي أخرج هذه الأمة لكي تكون خير أمة أُخرجت للناس.

يقول جوستاف لوبون "تثبت الآن أن تأثير العرب في الغرب عظيم كتأثيرهم في الشرق، وأن أوروبا مدينة للعرب بحضارتها" "ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب في الغرب إلا بتصور حال أوروبا حينما أدخل العرب الحضارة إليها. فإذا رجعنا إلى القرن التاسع من الميلاد، حيث كانت حضارة العرب الأندلسية في أوج نضارتها، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجاً يسكنها أمراء إقطاعيون متوحشون يفخرون بعجزهم عن القراءة" "مضت مدة طويلة قبل شعور أوروبا بهمجيتها ولم يبد ميلها إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر من الميلاد. فلما ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل عنهم ولوا وجوههم شطر العرب"[٢].

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) حضارة العرب. ترجمة الأستاذ محمد عادل زعتر صـ ٥٨٥-٥٩١.نقلا من كتاب'روح الدين الإسلامى للأستاذ عفيف عبدالفتاح طباره

ويقول "دريبر" المدرس في جامعة نيويورك في كتابه "المنازعة بين العلم والدين"[1]. "إن جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الأوروبيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم. وكان ملوك أوروبا وأمراؤها يفدون على بلاد المسلمين ليُعالجوا فيها".

"وقال العلامة سديو (SEDILLOT)[2] في كتابه تاريخ العرب: "كان المسلمون في القرون الوسطى منفردين في العلم والفلسفة والفنون. وقد نشروها أينما حلت أقدامهم. وتسربت عنهم إلى أوروبا فكانوا هم سبباً لنهضتها وارتقائها".

إن مظاهر هذه الحضارة، ومنابعها الصافية التي نهل منها القاصي والداني. وظلها الظليل الذي تفيأت الإنسانية به. ما أسباب انتكاسة وانطفاء هذه الشعلة المتقدة، والمنارة الهادية للحائرين والضالين في ظلمات الجهالة والطغيان والإفساد في الأرض.

ليس لهذه الانتكاسة إلا سبب واحد يكمن في البعد عن منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله. والاحتكام والركون إلى ما يسمى بالأنظمة الاشتراكية وقتما كان لهذه الاشتراكية دولة عُظمى ذات قوة وسطوة عسكرية، وعملاء من الحكام في العديد من دول العالم تابعون يدينون لها بالولاء السياسي والاقتصادي إلى أن انهارت هذه الدولة، وانهار نظامها وأيديولوجيتها الملحدة تنعي مخترعها وصانعها، أو إلى بالأنظمة الرأسمالية الغربية وكلا النظامين صنعهما بشر بأيديهم ليشقوا بهما. ويشقى كل من تمسك بأحدهما ويكتوي بنيرانها الشعوب المساكين ضحايا كل نظام بعيد عن منهج الله عز وجل. لأنه نظام أو دستور له نصوص وبنود حبيسة الأدراج والأضابير، لا نصيب لها في حياة الناس وواقع المجتمعات الإنسانية، أو إذا تحرينا الدقة يطبق بعض هذه النصوص على

---

(١) ، (٢) روح الدين الإسلامي.

الفقراء والمستضعفين في الأرض إذا سرق فيهم الشريف تردّوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد.

كما أن نصوص هذه الدساتير قابلة للتعديل والإلغاء والإضافة والحذف طبقاً لإملاءات أهواء ورغبات واضعيها ومنشئيها، لا نريد أن نطيل البكاء أو التباكي على اللبن المسكوب كما يقولون. ولكن ما نود أن نشير إليه، أن النهضة العلمية التي سبق الحديث عنها كانت من ثمار ونتائج دولة احتكمت إلى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله. وبعبارة أدق هذه النهضة العلمية هي إحدى المنجزات الفعالة للدولة الإسلامية. وهناك منجزات وصور أخرى مجيدة في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية والاجتماعية وغيرها. ويمكن تلخيص هذه المنجزات بكلمة واحدة هي القوة. فالدولة الإسلامية تحت ظل الحكم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كانت قوية وكما المحنا في موضع آخر من هذا الكتاب أن القوة في المنظور الإسلامي لا تعني الغطرسة والطغيان واغتصاب حقوق الآخرين، إنما هى قوة يحكمها ويضبطها عدل الإسلام المطلق. ونعني بالمطلق المساواة المانعة للتفرقة والتمييز على أساس الدين أو الطبقة أو العرق أو اللون. إنها قوة كفيلة بتحقيق العزة والكرامة للبشرية جمعاء، وهذه العزة مستمدة من الإيمان اليقيني أنه لا عبودية إلا لله عز وجل، ولا خشية إلا منه سبحانه ولا استعانة إلا به جل وعلا، ولا توكل إلا عليه. لا إله إلا هو له الملك وله الحمد يحي ويميت وهو على كل شيء قدير.

السمة السادسة

البذل والمنح

للأسرة والمجتمع والإنسانية

١- على مستوى الأسرة: لما كان للإسلام منهج تربوي واجتماعي قويم لإصلاح الإنسانية كافة، فقد عمل أولاً على تقويم وتهذيب اللبنة والوحدة الأولى لنسيج الإنسانية، وهي الأسرة التي تضم الوالدين وذريتهما، وقبل أن تتكون هذه الأسرة الصغيرة فإن للإسلام تصوراً ورؤية مستقبلية للأسرة الصالحة والزواج الناجح. فمن وصايا الدين الحنيف وتوجيهاته القويمة للمقبلين على الزواج، أن يكون الاختيار قائماً ومبنياً على الدين والخُلق الطيب، والقيم المعنوية البناءة التي تصون الحياة الزوجية من عوامل الانهيار والتصدع، فإذا كان الجمال الظاهري للمرأة مطلوباً ومستحباً، فينبغي ألا يطغي الشكل على المعنى والجوهر، فرسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم حذرنا من الحسناء التي نشأت وترعرعت في بيئة اجتماعية سيئة الخلق، ووسط عفن اجتماعي، يقول عليه الصلاة والسلام: إياكم وخضراء الدمن، قالوا وما خضراء الدمن يا رسول الله قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء.

إذا تكونت الأسرة بناء على القواعد والرؤى الإسلامية فإن الإسلام يظل ملازماً ومتعهداً الزوجين وذريتهما بالرعاية والعناية لا يدعهما هملاً، أو يتركهم سُدى، كلا! فرحمة الله تعالى وسعت كل شيء شاملة للبشر جميعاً، وهذه الرحمة والنعمة الكبرى هي في الالتزام بتعاليم الدين الحنيف ومبادئه السمحة. فمن هذه التعاليم العظيمة خلق الصبر، والكف عن الأذى، وتحمل الأذى، فعلى الزوجين في مستهل حياتهما الأسرية أن يتحليا بهذه القيم الرفيعة البناءة، حتى تمضي سفينتهما وسط البحار والعواصف والأنواء مستعينة بالله تعالى غير قانطة في رحمة الله تعالى "قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ"

* * *

إذا رُزق الزوجان الذرية، فمن الواجب عليهما – إسلامياً – أن يتعهدا مولودهما الجديد بالرعاية الصحية، والرضاعة الطبيعية فلقد أثبت الطب الحديث، أن لبن الأم لا يعادله أو يوازيه أي لبن من الألبان الصناعية. حيث إنه غني بالعناصر الغذائية والمناعية والوقائية، ومن التعاليم المستحبة في الإسلام أن يسمع الوليد بمجرد أن يكتحل عيناه بنور الحياة – كلمات الآذان وإقامة الصلاة – وهذا يؤكد ما أشرنا إليه سابقاً أن رعاية الإسلام للإنسان موصولة في جميع أطوار ومراحل حياته العمرية، ودائمة دوام الحياة الإنسانية وعلى الوالدين أن يأمرا أبناءهما بالصلاة لسبع سنوات. والضرب عند الامتناع عن الصلاة لعشر، كما أوصى بذلك الرسول عليه الصلاة والسلام. ثم نأتي إلى العلاقة بين الأبناء ووالديهم، ولاسيما بعد أن يتجاوز الأبناء مرحلة الطفولة، لقد كان من طبيعة الأمور المألوفة أن يوصي الإسلام الأبناء ببر آبائهم والإحسان إليهم ذلك أن عطف الآباء على الأبناء والحدب عليهم من الفطرة السليمة المركوزة في الطباع البشرية، والحيوانية على السواء. ولذلك نرى الآيات القرآنية المحكمات في كثير من سور القرآن العظيم تطالب الأبناء بالبر بالوالدين والإحسان إليهما، ومعاملتهما معاملة كريمة، والدعاء لهما بالرحمة، لأنهما كثيراً ما عانيا في تنشئة ابنائهما وتربيتهما يقول الحق تبارك "وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا. رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا" (الإسراء ٢٣-٢٥).

وقوله تعالى: "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا" (البقرة ٨٣). وقوله عز وجل: "وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا" (النساء ٣٦). وقوله سبحانه: "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا" (الأنعام ١٥١). وقال جل شأنه "وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ. وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ" (لقمان ١٣، ١٤). الملاحظ من الآيات السابقة أن الأمر بالإحسان إلى الوالدين ورد

في النص الكريم مرتين بعد النهي عن عبادة ما سوى الله تعالى وذلك في سورتي البقرة والإسراء. وبعد الأمر بعبادة الله عز وجل والنهي عن الشرك مرة واحدة في سورة النساء. وبعد النهي عن الشرك مرتين في سورتي الأنعام ولقمان. وبمعنى آخر أن التوصية ببر الوالدين والإحسان إليهما تجيء في القرآن الكريم بصورة مطردة بعد أمر أو نهي يتعلق بالعقيدة. عقيدة الوحدانية، وعبادة واجب الوجود المعبود بحق سبحانه وتعالى. وهذا يدل دلالة قاطعة احتفال الإسلام وعنايته بشأن الوالدين احتفالاً وعناية يصلان إلى أبعد مدى ويقول الإمام الألوسي رحمه الله تعالى معللاً ورود الأمر الإلهي بالإحسان بالوالدين بعد الأمر بعبادة الله وحده ".. وثنى الله تعالى بهذا التكليف (يعني الإحسان إلى الوالدين) لأن نعمة الوالدين أعظم النعم على العبد بعد نعمة الله تعالى، لأن المؤثر الحقيقي في وجود الإنسان هو الله عز وجل والمؤثر في الظاهر هو الوالدان"[1]. نعم إن نعمة الوالدية لأعظم النعم بعد نعمة الإيمان بالله عز وجل، ولذلك فإن الولد مهما بالغ وأخلص في البر والإحسان بوالديه وخدمتهما فلن يستطيع أن يفي بالنزر اليسير من بعض حقوقهما عليه.

"عن بريدة عن أبيه: أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها. فسأل النبي صلى الله عليه وسلم هل أديت حقها قال: لا ولا بزفرة واحدة"[2].

والإسلام في وصيته الأبناء بالبر بالآباء، إنما يبغي في صلاح هؤلاء الأبناء في دنياهم وأخراهم فإذا استجابوا لما يدعوهم ربهم لما يحييهم كانوا من الأبناء الطائعين لربهم جل وعلا، البارين بآبائهم، وإن بيتاً يضم مثل هؤلاء الأبناء نموذج طيب وقدوة حسنة للبيوت المسلمة جميعاً التي يريد الإسلام أن يكون بنيانها قائماً ومؤسساً على تقوى من الله ورضوانه فلو كل بيت أسس على مبادئ الإسلام وقيمه وتوجيهاته العظيمة، لرأينا الإسلام ممارسة حياتية وعملية وتطبيقية في جميع مناحي الوجود السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية

---

(١) روح المعاني جـ٤.

(٢) رواه البزار.

و حضارية، بشرط واحد ألا تكون هناك يد تبني وتشيد وتنمي، ويد أخرى تهدم وتدمر وتخرب ما تبنيه اليد الأولى.

فالإعلام بجميع وسائله المختلفة، ينبغي عليه أن يكون أداة بناءة وداعية لكل المبادئ والقيم الإسلامية مؤازراً ومسانداً البيئة المسلمة.

* * *

٢- صلة ذوي الأرحام: إن الإسلام دين يرغب في العلاقات الاجتماعية القائمة على المودة والحب بين الناس جميعاً، إلا أنه أكد وشدد على التواصل والتحاب بين ذوي الأرحام والأقارب على وجه الخصوص، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قُطعت رحمه وصلها"(١). والمكافئ هو الذي يصل من رحمه من وصلها فقط. ويقطع من قطعها - أما الواصل فهو الذي يصل من قطعه وهو النهج النبوي الشريف الذي يدعو إلى العفو والتسامح ومقابلة السيئة بالحسنة يقول الحق تبارك وتعالى: "وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ" (فصلت٣٤-٣٥) لأن من يقابل السيئة بالإحسان والأفعال القبيحة بالأفعال الحسنة، يلقى من يعاديه منقلباً من عداوته إلى المحبة ومن البغض إلى المودة، كذلك فإن الواصل رحمه غير المكافئ يلقى الذي يصله المقاطع أياه مستحيياً. مضطراً إلى وصال رحمه - والإسلام في منهجه التربوي هذا إنما ينشد إلى تنشئة النفس القوية، التي تترفع عن سفاسف الأخلاق وسيئها. وتسمو إلى الفضائل الخلقية الرفيعة، مقتدية بالشخصية النموذجية الأسوة الحسنة والطيبة في الكمالات الأخلاقية الذي ضرب الأمثلة الرائعة والحية في تحمل أذى الجاهلين من قومه، وسفاهة السفهاء منهم. كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يستقبل جميع صور الأذى المادي والمعنوي بقولته الخالدة "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون" صبر وصابر على كل

---

(١) رواه البخاري.

هذه الجهالات العمياء في سبيل أسمى رسالة وأعظم بلاغ من رب السموات والأرض. ليخرج العالمين من الظلمات إلى النور.

وكما قلنا – سابقاً – إن الإسلام حيث أوصى الأبناء بالبر والإحسان إلى والديهم" إنما كان يرمي إلى تنشئة الأجيال الفتية بقيم الإسلام البناءة، تمهيداً إلى إخراج الأمة، أو المجتمع الإسلامي الكبير خير أمة للناس، وهذا الهدف الإسلامي نفسه مطلوب في هذاية ذوي الأرحام، وذلك بالحض على تبادل مشاعر المودة والرحمة والمحبة، ونبذ كل ألوان البغضاء، والشقاق، والشحناء، بين أفراد تضمهم روابط وأواصر الرحم، الرحم الذي يحذر الدين الحنيف من قطع وصالها. وفصم جبالها "عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه. قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله أنا الله وأنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته"(١). وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام: "لا يدخل الجنة قاطع رحم".

ذلك أن القطيعة بين ذوي الأرحام والأقارب ما هي إلا حرب خفية غير معلنة أو نار تحت التراب، وللإسلام منهج ذكي، وسياسة وقائية لتجنب جميع المعارك والصراعات سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات الإقليمية أو الدولية، هذه السياسة أو النظام الوقائي عرضناها في موضع آخر من هذا البحث الذي بين أيدينا، وهذه السياسة الوقائية، اتبعها الإسلام في هذا المجال الأسري الذي نحن بصدده، فالحرب غير المعلنة بين ذوي الأرحام بسبب العلاقات الاجتماعية غير السوية، كما أشرنا إليها آنفاً عالجها الإسلام قبل أن تستفحل وتستعر أوار هذه الحرب الخفية، عالجها بالوصال، والحث على استمرار مشاعر المودة والحب والصفاء. وهي التي تقي وتحمي وتصون ذوي الأرحام من دواعي الشحناء والبغضاء التي تدفع إلى الاقتتال والعداوة والأحقاد كما هو المشاهد والملموس في عصرنا هذا بين الأخوة الأشقاء ، وغير الأشقاء لأسباب مادية، أو عينية تتعلق غالباً بميراث الأسرة بعد وفاة عائلها وقد يقتل الابن والده

---

(١) رواه الترمذي.

– والعياذ بالله تعالى – لأنه آثر أحد أبنائه أو إحدى زوجاته بشيء دون بقية الورثة، وأحياناً يكون البديل للصراع الدموي هو اللجوء إلى المحاكم التي يلتقي في ساحاتها الأخ بأخته والأب بابنه. والزوجة بزوجها. والجميع يضمر لخصمه كل صنوف الكراهية والبغض. متربصاً بلحظة الانتصار عليه، والفوز بهزيمته والقضاء عليه. كل ذلك لماذا؟ لأجل حطام ومتاع دنيا زائل أو بعبارة أصح وأدق لأجل "لذة" الانتصار على خصمه (أخيه أو أبيه، أو أمه، أو زوجة الأب، أو زوج الأم) "فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ" (محمد ٢٢، ٢٣).

والقرآن الكريم الكتاب الذي يهدي دائماً للتي هي أقوم وأعدل وأصلح وأفضل يقدم لنا صوراً عديدة للنفس الإنسانية في استقامتها وسموها وصوراً أخرى لهذه النفس في انحرافها واعوجاجها عن الصراط السوي وذلك ليتعظ ويعتبر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (يوسف ١١١).

ففي قصة قابيل وهابيل، وقصة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام مع أخوته، بيان شاف لمواطن الضعف والضعة والهوان في الطبيعة البشرية، حيث إن الحقد الأسود في عنفوانه المجنون والشرير يحيل الإنسان إلى شيطان مارد يستحل قتل أخيه أو الشروع في قتله، لا لشيء سوى أن أخاه الذي استباح دمه ذو نعمة أو حظوة، امتن بها عليه المنعم المنان سبحانه وتعالى، إنه بلا شك اعتراض جاهل على نعم الله عز وجل وآلائه على عباده. إن القرآن العظيم حين يعرض علينا هذه النماذج البشرية السيئة والبشعة، يدعونا إلى الإقلاع عن كل الخصال الذميمة التي تهبط بالإنسان – الذي كرمه خالقه سبحانه – إلى أسفل السافلين والإقلاع وتجنب القاذورات الخلقية، هو الوقاية – كما قلنا – من الورود في موارد الهلاك والخسران، وتجرع كئوس الحسرة والندم ولات ساعة مندم.وفى الوقت نفسه دعوة غير مباشرة إلى التحلى والتمسك بقيم العطاء والبذل والإيثار فهذا قابيل بعد أن قتل أخاه هابيل انظر إلى مصيره الذي آل

إليه، هذا المصير المشئوم ينبئك عنه معاناته الأليمة التي يصورها كلماته الباكية والحزينة. "فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ" (المائدة ٣٠-٣١)، لم يكن الخسران والندامة فقط مصير أول من ابتدع جريمة القتل في تاريخ الإنسانية، بل يكفيه مذلة ومهانة وصغاراً أن الغراب الأسود كان معلمه كيف يواري جثمان أخيه، بعد أن عجز عن التصرف في مآل ما جنته يداه الآثمتان.

في قصة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام مع أخوته كان الحقد والغل والضغينة هي أيضاً المحرك الوحيد، والدافع الجوهري لنسج خيوط الجريمة النكراء فإذا كان قابيل في القصة السابقة حقد على أخيه هابيل أن تقبل الله عز وجل قربانه، ولم يتقبل قربانه هو، فإن أخوة يوسف عليه السلام كبر عليهم أن يستأثر يوسف وأخوه بقلب أبيهم دونهم، فكان أن بيتوا وتآمروا على قتل يوسف أخيهم، زاعمين أنهم بعد قتله سيفوزون بحب أبيهم. "إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ" (يوسف ٨، ٩). ولقد جهلوا حقيقة مؤكدة وهي أن عاطفة الحب من المشاعر التي يملكها الله عز وجل وحده وليس مقدوراً للعبد بدليل قوله تعالى: "وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (الأنفال ٦٣). "وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقسم فيعدل ويقول اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك"[1]. وأخوة يوسف عليه السلام أرادوا أن ينالوا حب والدهم بعد قتل أخيهم ليحلوا محله في قلب أبيهم وهذا مُحال، لأنه من المُسلمات المعهودة، أن الغايات الشريفة ليس الوصول إليها بوسائل مجرمة، أو غير مشروعة على الأقل، فلا ينال الخير إلا بوسائل خيرة. والدليل على ذلك أن هؤلاء بعد أن ارتكبوا جريمتهم الشنعاء. بإلقاء أخيهم في غيابات الجب، مدعين – زوراً وبهتاناً – أن يوسف أكله الذئب استشعروا

---

(١) أبو داود.

بأنفسهم كذب ادعائهم (من باب يكاد المريب يقول خذوني) وقبل أن يواجههم أبوهم بكذبهم وافترائهم، نتبين ذلك عند قراءتنا للآيات الكريمات "وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ. قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ. وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ" (يوسف ١٦-١٨).

وأخيراً لقد أبرم الأخوة الذين كادوا بأخيهم أمراً، وأبرم الله عز وجل أمراً "إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً" نعم لقد مَن الله تبارك وتعالى على نبيه يوسف الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم عليهم الصلاة والسلام – فعلمه تأويل الأحاديث ونجاه من الجب وأخرجه من السجن الذي أُدخل فيه ظلماً وعتواً. وجعله الله تعالى على خزائن الأرض وآتاه الملك "إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" (يوسف ٩٠). ولقد اعترف الأخوة بإثمهم وجرمهم الذي اقترفوه فطلبوا من أبيهم العفو والغفران فقال لهم الأب المتخلق بأخلاق النبوة "قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" (يوسف ٩٨).

٣- على المستوى المجتمعي المحدود: من الأحاديث النبوية الشريفة: إن المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ويصبر على أذاهم ذلك أن الاختلاط بالناس فضيلة ومكرمة خلقية للمخالط، ثانياً: إنه عن طريق الاختلاط يقف المسلم على مشكلات الناس وقضاياهم ومتاعبهم فيحاول أن يجد حلاً أو علاجاً لهذه المشكلات، فإن لم يجد أو لم يستطع فيشارك مشاركة وجدانية، أو بالدعاء والتضرع إلى الله عز وجل أن يكشف الكرب ويزيل الهموم. وكل ذلك إنما يدل على سمات وخصائص الشخصية السوية المعطاءة أما الانعزالية والانطوائية والتقوقع الذاتي فهذه من الخصال الخلقية الذميمة التي انفردت بها المجتمعات العلمانية أو الغربية التي نحت وهمشت دور الدين لا كمنظم لحياة الأمم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وحسب، وإنما كقيمة خلقية. وسلوك أخلاقي أيضاً.

والإسلام أول من يوصي بإكرامه وتبادل الحب والمودة وجميع المشاعر الإيجابية البناءة هو الجار يقول الحق تبارك وتعالى "وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا" (النساء ٣٦).

لقد شملت الآية الكريمة الإحسان إلى جميع أنواع الجيران: الجار القريب والبعيد، والجار رفيق السفر، أو الذي يلزمك ويصحبك رجاء نفعك"[١]. أو بمعنى أشمل كل من يجاور الإنسان، ويقول الرسول الكريم ﷺ في الحديث الصحيح "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"[٢].

وما دام الإحسان إلى الجار وإكرامه خلقاً إسلامياً، فإن إيذاء الجار والمبالغة في إيذائه، ينال من الإيمان أو من كماله. يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام" "والله لا يؤمن[٣]. والله لا يؤمن، والله لا يؤمن. قيل ومن يا رسول الله قال: الذي لا يؤمن جاره بوائقه"[٤]. ذلك أن الإيمان ليس معتقداً قلبياً أو وجدانياً وحسب. كلا إن الإيمان ينبغي أن يُترجم إلى سلوك إسلامي. وإلى ممارسة عملية طبقاً لما أمر به الكتاب والسنة الصحيحة ونهيا عنه – نعم إن الإيمان كما قال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم: "ما وقر في القلب وصدقه العمل".

ووجوه الخير والصلاح والمعروف في إسلامنا الحنيف ما أكثرها وما أشملها! وأيضاً ما أيسرها فمن وجوه الخير والإحسان والبذل والتي يُثاب المرء عليها، على الرغم من أنه لا يكلف شيئاً، وليس محتاجاً إلى بذل مال أو جهد أو طاقة – الابتسامة نعم الابتسامة في وجوه الناس صدقة. ألم يقل الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم "تبسمك في وجه أخيك صدقة" ويقول المبعوث

---

(١) تفسير البيضاوي.

(٢) رواه البخاري.

(٣) السابق

(٤) شروره.

رحمة للعالمين صلوات الله وسلامه "على كل مسلم صدقة، قالوا فإن لم يجد؟ قال: فليعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق، قالوا فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: فيعين ذا الحاجة الملهوف. قالوا. فإن لم يفعل؟ قال: فليأمر بالخير أو قال بالمعروف. قالوا: فإن لم يفعل قال: فليمسك عن الشر فإن له صدقة"[1] حقاً إنه دين الرحمة وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" صدق الله العظيم، ولم لا يكون دين الرحمة. إذا كان قد جعل الإقلاع عن الشر، أو ترك الشر واجتنابه صدقة يُثاب المرء عليها. أي يجازيه ربه سبحانه بالجزاء الحسن على الرغم من أن ترك الشيء، بمعنى عدم الفعل ربما يبدو سلبية مطلقة، هل هناك مودة ورحمة من خالق السموات والأرض ومن فيهن لعباده أكثر من ذلك، نعم إنه سبحانه الحنان المنان الودود الرءوف الرحيم. رحمته وسعت كل شيء. ويريد من الناس جميعاً أن يرحم بعضهم بعضاً، بل أن تشمل رحمتهم إلى الكائنات الحية من حيوان وطير وغيرهما لكي يصادق الإنسان بيئته ووسطه ومحيطه حتى لا يكون مكان للبغض والعداء والكراهية. "عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول صلى الله عليه وسلم "بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش. فوجد بئراً فنزل فيها وشرب. ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي فنزل البئر، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، فسقي الكلب فشكر الله له فغفر له. قالوا يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر"[2].

كذلك فمن القيم التي تؤكد الترابط بين أفراد المجتمع، والجديرة بتأصيل مشاعر المودة والمحبة والتآزر المشاركة في المناسبات والظروف الاجتماعية، عيادة المريض وتشييع الجنازة. وتبادل التهاني في المناسبات السارة كل ذلك وسيلة لخلق التحاب. يقول صلى الله عليه وسلم في حديث ما معناه ألا أدلكم

---

(١) رواه البخاري.

(٢) المصدر السابق.

على شيء إذا فعلتموه تحابيتم أفشوا السلام بينكم، إن كل هذه المبادئ البناءة إذا طُبقت ومُورست عملياً كفيلة بخلق الإنسان السوي والمجتمع السوي.

٤- على المستوى الإنساني عامة: جاء الإسلام للرقي بالإنسان كافة، فمن مظاهر هذه الرقي، إن الإسلام حرر الإنسان أن يعبد أو يقدس، أو يتوسل كل ما لا يليق بكرامة هذا الإنسان وآدميته، وقبل أن يشرق نور الإسلام على الجزيرة العربية كانت عبادة الأصنام والأوثان والأحجار سائدة وجاء الدين الجديد ليبطل هذه العبادات التي يرفضها العقل السليم، لأن هذه الأحجار المعبودة من دون الله تعالى من المُسلّم به لكل ذي فهم وإدراك منطقي، أنها لا تنفع ولا تضر، بل إن الإنسان الذي يعبدها هو أنفع وأجدى لذاته من هذا الحجر الأصم.

وكان حجة هؤلاء الذين عبدوا الحجر والوثن. أنهم وجدوا آباءهم وأجدادهم يعبدونها. وكان الإقناع القرآني لهم بالمرصاد "أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون" المائدة ١٠٤ وهنا يحارب الإسلام التقليد الأعمى حتى لو كان المقلدون هم الآباء والأجداد، وإنما الأحق والأولى بالعبادة هو الذي يملك النفع والضر والإحياء والإماتة والبعث والنشور.

"الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ" (الشعراء ٧٨-٨٢).

ومن إنسانية الإسلام: إعلان إن الإنسانية جميعها ترجع إلى أصل واحد ونفس واحدة "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً" (النساء:١) إن الإسلام يدعو إلى تعارف الشعوب جميعها لا إلى التصادم والتحارب "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا" (الحجرات ١٣). الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" (النحل ١٢٥) الدعوة إلى السلام قاعدة في الإسلام والحرب استثناء "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً" (البقرة ٢٠٨) حرية العقيدة "لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" (البقرة ٢٥٦).

من إنسانية الإسلام أيضاً تحقيق العدالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للناس كافة على الرغم من اختلاف الدين والعرف واللون والطبقة الاجتماعية، يقول الحق تبارك وتعالى: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ" (النساء ٥٨). فكلمة الناس في الآية الكريمة شاملة لجميع الناس، فليس الحكم بالعدل – حسب الشريعة الإسلامية – مقصوراً على المسلمين فقط. والإسلام من عدالته أيضاً ألغى التمايز بين الناس إلا على أساس واحد فقط هو تقوى الله تعالى عز وجل فقال تعالى: "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" (الحجرات ١٣). إنها المساواة الإسلامية، هذه المساواة التي نفتقدها كثيراً في حياتنا المعاصرة، التي صار فيها القيم المادية، والزخرف الاجتماعي الكاذب هي مقياس تقدير واحترام بل وتقديس بعض الناس، وفي مجتمعاتنا العربية–مع كل أسف– على وجه أخص.

وإليك واقعتين تشهدان بواقعية المساواة في الإسلام.

١– كان أمير من أمراء الغساسنة الذين كانوا قبل الإسلام يطوف بالبيت فوطئ إزاره شاب من فزارة فلطمه الغساني لطمة جدعت أنفه، فذهب الشاب إلى الإمام عمر، وشكا إليه، فقال للغساني: له القصاص أو يعفو عنك فقال: كيف وأنا أمير وهو سوقة، فقال عمر لقد سوى بينكما الإسلام، فلا تفضل إلا بالتقوى فأخذ الأمير يسترضي الشاب الأعرابي فلم يرض إلا بأن يلطمه كما لطمه، وعلم أن عمر لا محالة سيمكن الأعرابي من القصاص ففر إلى الروم مرتداً عن الإسلام، ما أهم ذلك عمر، فإن خير للإسلام أن يخرج منه من لم يعمر الإيمان بالعدل قلوبهم من أن يقر ظلماً أو يأخذ بالهوادة ظالماً"[١].

٢– ويُروى أن عمرو بن العاص قال لبعض العرب يا منافق. وكان ذلك في المسجد، فذهب الرجل إلى عمر رضي الله عنه وقال له: لقد نفقني الأمير. وما نافقت منذ أسلمت فأرسل عمر إلى عمرو وقال له: إن كنت نفقته في ملأ فليضربك كذا سوطاً فذهب إلى المسجد وقال من منكم سمع الأمير ينفقني. قالوا:

---

(١) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام للإمام محمد أبو زهرة.

كلنا سمعه فقرأ عليهم الكتاب فقال بعض المنافقين "أو تضرب الأمير. وصاحوا فيه مستنكرين الحق. فقال الرجل: أليس لأمير المؤمنين هنا طاعة. فقدم عمرو نفسه ليضربه الرجل، فقال الأعرابي الأبي: الآن عفوت"[1].

نعم إنها عدالة – الإسلام نراها بأعيننا، ونلمسها بأيدينا، وليست نصوصاً ومواد وبنوداً في دستور من الدساتير العلمانية لاحظ لها في حياة الناس. بل مدفونة بعد موتها غذاء للديدان والحشرات. وتأمل رد الأمير الغساني على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما قال: له القصاص. فقال الأمير الغساني: كيف وأنا أمير وهو سوقة؟ إن معنى هذه العبارة الغبية، نسمعه كثيراً من بعض من أخذته العزة بالإثم "ما تعرفش أنا مين؟!! يا لله للمسلمين! ولك الله يا دين محمد!!.

---

(١) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام للإمام محمد أبو زهرة.

السمة السابعة

الحرية والاعتماد على الذات في التفكير

إن الإسلام دين يدعو إلى إعمال العقل، والتدبر والمنطق السليم كما أشرنا إلى ذلك سابقاً وذلك لسببين جد خطيرين: أولهما أن النظر العقلي. والتفكير في مخلوقات الله تعالى من أرض وسماء، وإنسان وحيوان ونبات وبحار وأنهار ورياح وكواكب سيارة وسحب وهواء وغيرها، هو السبيل إلى معرفة الخالق المبدع الحكيم جل وعلا، وثانيهما: أن العقل أيضاً هو الأداة والوسيلة المهمة للوصول إلى المستحق للعبادة سبحانه جلت قدرته وتعالت أسماؤه وهذه بعض الآيات القرآنية المحكمة التي تضمنت واشتملت على كل ما يدعو إلى استخدام العقل، أو يحض عليه وهي: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" (البقرة ١٦٤). وقوله تعالى "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ. وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ. وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" (الروم ٢٥-٢٨).

وقوله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ" (المؤمنون ٨٠).

وقوله تعالى: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ

لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ" (إبراهيم ٣٢-٣٤).

وقوله تعالى: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ" (يونس ١٠٤-١٠٦).

وقوله تعالى: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ. قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ. قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ. الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ" (الشعراء ٦٩-٨٢).

وقوله تعالى: "وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ. قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ" (الزخرف ٢٣-٢٤).

ومن دلائل احترام الإسلام العقل، ودعوته الملحة إلى عدم تعطيل هذه الملكة النيرة، إقرار هذا الدين الحنيف بحرية الإنسان وألا يكون عبداً إلا لخالقه، ورازقه. وخالق ورازق كل الكائنات الحية. وعبودية الإنسان لربه ورب الموجودات جميعها هذه العبودية كفيلة وجديرة بتحريره من جميع صور وأشكال الرق والاستعباد والاستذلال، فالحرية - كما يقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى[1] - هي حرية القلب ولا يكون قلب الإنسان حراً، إلا إذا كانت عبودية الله عز وجل مستولية على ذلك القلب. وإلا فإنه ليس للقلب إلا عبوديته لما سوى الله تعالى"

---

(١) العبودية لابن تيمية.

ولما كانت عبودية ما سوى الله تعالى محظورة وممنوعة. إسلامياً – فإن الله الحكيم العليم لم يرد للبشر أن يكونوا عبيداً حتى لصفوة خلقه وهم الأنبياء والمرسلون عليهم صلوات الله وسلامه. الذين اصطفاهم ربهم سبحانه لتبليغ أعظم وأقدس رسالة إلى الناس. رسالة السماء إلى الأرض. ولكي يُخرجوا البشرية من ظلمات الشرك والجهالة والضلالة والإفساد في الأرض إلى نور التوحيد والعلم والهدى وعمارة الكون وإصلاحه. الذين جاهدوا في الله حق جهاده. ولاقوا في سبيل دعوة الحق. جميع صنوف التعذيب الجسدي والمعنوي والقتل والسخرية والاستهزاء والتكذيب. فصبروا وصابروا ورابطوا. وكانوا يدعون ربهم رغباً ورهباً وكانوا له خاشعين. ولكن على الرغم من هذه المنزلة الكريمة عند ربهم. والمكانة والكرامة العُظمى التي أنعم الله تعالى عليهم بها وأنعم بهم على الناس كافة. على الرغم من كل ذلك لم يشأ الله تعالى إلا أن يكونوا بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. فلا تقتضى بشريتهم هذه وإن كانت بشرية مميزة ومفضلة وأثيرة أن يقولوا للناس كونوا عباداً لنا. إنما العبودية لله تعالى وحده يقول الحق تبارك وتعالى "مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ" (آل عمران ٧٩).

ورسولنا الكريم صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يقل للناس كونوا عباداً لي. ولكن الآية موجهة لمن قالوا: عزير ابن الله والمسيح ابن الله فمن أسباب نزول هذه الآية "قال ابن عباس: لما قالت اليهود عزير ابن الله. وقالت النصارى المسيح ابن الله نزلت هذه الآية. وقيل إن أبا رافع القرظي من اليهود ورئيس وفد نجران من النصارى قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً. فقال صلى الله عليه وسلم: معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بغير عبادة الله فما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني"[1] كما أن النهي عن عبادة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام رد على من زعم أن يكون الرسول ملكاً،

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ج٤.

ولما كانت عبودية ما سوى الله تعالى محظورة وممنوعة. إسلامياً – فإن الله الحكيم العليم لم يرد للبشر أن يكونوا عبيداً حتى لصفوة خلقه وهم الأنبياء والمرسلون عليهم صلوات الله وسلامه. الذين اصطفاهم ربهم سبحانه لتبليغ أعظم وأقدس رسالة إلى الناس. رسالة السماء إلى الأرض. ولكي يُخرجوا البشرية من ظلمات الشرك والجهالة والضلالة والإفساد في الأرض إلى نور التوحيد والعلم والهدى وعمارة الكون وإصلاحه. الذين جاهدوا في الله حق جهاده. ولاقوا في سبيل دعوة الحق. جميع صنوف التعذيب الجسدي والمعنوي والقتل والسخرية والاستهزاء والتكذيب. فصبروا وصابروا ورابطوا. وكانوا يدعون ربهم رغباً ورهباً وكانوا له خاشعين. ولكن على الرغم من هذه المنزلة الكريمة عند ربهم. والمكانة والكرامة العُظمى التي أنعم الله تعالى عليهم بها وأنعم بهم على الناس كافة. على الرغم من كل ذلك لم يشأ الله تعالى إلا أن يكونوا بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. فلا تقتضى بشريتهم هذه وإن كانت بشرية مميزة ومفضلة وأثيرة أن يقولوا للناس كونوا عباداً لنا. إنما العبودية لله تعالى وحده يقول الحق تبارك وتعالى "مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ" (آل عمران ٧٩).

ورسولنا الكريم صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يقل للناس كونوا عباداً لي. ولكن الآية موجهة لمن قالوا: عزير ابن الله والمسيح ابن الله فمن أسباب نزول هذه الآية "قال ابن عباس: لما قالت اليهود عزير ابن الله. وقالت النصارى المسيح ابن الله نزلت هذه الآية. وقيل إن أبا رافع القرظي من اليهود ورئيس وفد نجران من النصارى قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً. فقال صلى الله عليه وسلم: معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بغير عبادة الله فما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني"[1] كما أن النهي عن عبادة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام رد على من زعم أن يكون الرسول ملكاً،

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ج٤.

كما توهم قوم سيدنا نوح عليه السلام "فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ" (المؤمنون ٢٤).

ودعوة الإسلام إلى حرية الإنسان ليست شعارات أو هتافات جوفاء لا رصيد لها من الواقع. فحرية العقيدة مشروعة بنص آيات من كتاب الله العزيز الحكيم يقول عز وجل "لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ" (البقرة ٢٥٥). وقوله تعالى "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ" (يونس ٩٩). وقوله تعالى: "وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ" (الكهف٢٩).

وهذه الحرية في العقيدة المصرح بها في القرآن الكريم شهدت بها البلاد والمدن التي دخلها الإسلام فلم يرغم أهل هذه البلدان على اعتناق الإسلام، بل أُتيح لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية بعد أن اكتفى الإسلام منهم بدفع الجزية.

وما دام الإسلام مقراً بحرية العقيدة. فلا يُكره أحداً على الانضواء والانضمام تحت رايته. فإنه يرفض التذبذب والتلجلج والنفاق في شخصية الإنسان، وهذه السلبيات مناقضة لمظاهر الشخصية السوية بمفهوم علم النفس الحديث. فمن يظهر الإسلام ويبطن الكفر. عامل هدم وتدمير في كيان المجتمع المسلم. ولذلك نرى القرآن الكريم يحذر الفئة المؤمنة من هذا الداء العضال وأشاره الوخيمة يقول الحق تبارك وتعالى: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ. يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ. فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ. وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ. اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ" (البقرة ٨-١٦).

وفي القرآن الكريم سورة تُسمى سورة "المنافقون" تناولت شخصيتهم المعوجة والمنحرفة، شخصية لا تمارس إلا الكذب، وإظهار خلاف ما يكنه ضميره ووجدانه. يقول الحق تبارك وتعالى في مستهل هذه السورة مخاطباً رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم: "إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ" (المنافقون ١). والكذب من الخصال السيئة واللصيقة والمركوزة في شخصية المنافق، مثل الخيانة. وخلف الوعد. كما قال رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام.

كذلك فإن الإسلام لما كان حريصاً – على تكوين الشخصية السوية قبل أن يكتشف علم النفس الحديث، معالم الشخصية السوية بأربعة عشر قرناً – أكد أن يكون تفكير الإنسان، وحكمه على الناس والأشياء سلباً وإيجاباً، نابعاً من اقتناعه العقلي الذاتي فلا ينبغي أن يكون مقلداً، أو تابعاً لغيره تبعية يأباها تكريم خالق الإنسان سبحانه وتعالى لمخلوقه، لذلك كان من توجيهات المصطفى المعلم الأكبر للبشرية صلوات الله وسلامه عليه، وتحذير أمته من الوقوع في هذه الآفة والرذيلة الشخصية، بقوله "لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا. ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا"[1] فالإنسان السوي لا يحسن سلوكه وتعامله مع مجتمعه وأمته لأنه يرى غيره من الناس يسلك هذا الاتجاه وذلك المنحى الإيجابي وحسب، وإنما يتخذ سبيل الخير والطيبات من القول والعمل والموقف لأنه السبيل الذي يقره الإسلام والذي آمن به ديناً وعقيدة ومنهجاً في الحياة. والذي يؤيده ويؤازره العقل والمنطق السليم ، كذلك لا نتجنب السيئات والموبقات لأن غيرنا بعيد عنها ولا يقترفها، ولكن لأن ديننا الحنيف ينهانا عنها ويحذرنا منها ونحن مؤمنون إيماناً يقينياً أن في اتباع تعاليم وقيم ديننا وإسلامنا الخير والصلاح والفلاح والفوز بالدنيا ونعيم الآخرة.

---

(١) رواه الترمذي.

ولكي تكتمل مقومات ومكونات الشخصية السوية في المنظور الإسلامي، وعلم النفس الحديث ينبغي أن تكون هذه الشخصية سليمة من جميع شوائب الذبذبة والنفاق والاضطراب شخصية لا تلقى وتواجه المجتمع إلا بوجه وبرؤية واحدة، لا بوجهين وبرؤيتين مضادتين متنافرتين. وأستاذ البشرية ومعلمها الأكبر صلى الله عليه وسلم لا يترك خيراً إلا ويأمرنا به ولا شراً إلا وبنهانا عنه. والشر الذي يحذرنا منه هنا عليه الصلاة والسلام هو ما جاء في هذا الحديث "إن من شر الناس عند الله يوم القيامة ذا الوجهين" وللأسف الشديد أن عصرنا الحاضر مُبتلى بهذا الصنف المريض من الناس. إنه صنف جبان رعديد يخشى الناس ولا يخشى الله تعالى "والله أحق أن تخشاه" ولو كان يخشى الله عز وجل، لما كان ذا وجهين متضاربين، يلقى هذا بوجه ويلقى ذلك بوجه آخر.

نعم إن خشية الله تبارك وتعالى، خشية عقابه، ومراقبته في السر والعلن. في الظاهر والباطن، هي الشجاعة الأدبية، في جميع المواقف، وتاريخ علمائنا المتقين العاملين بكتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام. أكبر شاهد وأقوى دليل على أنهم علماء. ولأنهم كانوا علماء فلم يخشوا إلا خالقهم ورازقهم. وصدق الله العظيم "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" (فاطر ٢٨). وقد دفعتهم هذه الخشية إلى قول الحق في جميع الأزمنة والأمكنة، وفي جميع المواقف والظروف أمام الحكام والسلاطين والزعماء والجبابرة والطغاة والفراعين الذين يملكون ويستطيعون البطش بهم. وانتهاك حرمة حياتهم،إنهم على الرغم من كل ذلك لايقولون إلا الحق لأنهم لو قتلوا كانوا شهداء والشهداء أحياء عند ربهم. والشهادة أمنية وغاية كل مؤمن يقول صلى الله عليه وسلم "أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر"[1] والآن نستعرض بعض المواقف الجليلة لبعض علماء وفقهاء الإسلام الذين لم يخشوا إلا الله عز وجل، فلم تمنعهم هيبة حاكم من إعلان كلمة الحق والعدل جريئة، ومدوية. وكيف تحول هيبة بشر حاكماً أو غير حاكم دون قولهم قول الحق، والرسول صلوات الله وسلامه يقول: "ألا، لا يمنعن

---

(١) رواه ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

رجلاً هيبة الناس، أن يقول بحق إذا علمه" وهؤلاء العلماء العاملون لم يجرؤا على كلمة الحق والعدل، مباهاة وطلباً للمفاخرة وإعجاب الناس بهم. كلا لم يفعلوا ذلك، إلا عملاً بمبدأ إسلامي خطير وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والنصيحة لله ولرسوله ولعامة المسلمين وأئمتهم.

وإليك بعضاً من هذه النماذج الرائعة والقدوة العظيمة لجميع العلماء والفقهاء في مختلف العصور:

١- "حُكي[١] أن حطيطاً الزيات جيء به إلى الحجاج (ابن يوسف الثقفي) فلما دخل عليه قال: أنت حطيط؟ قال: نعم سل عما بدا لك، فإنني عاهدت الله - عند المقام. على ثلاث خصال: إن سُئلت لأصدقن، وإن أُبتليت لأصبرن. وإن عُوفيت لأشكرن. قال فما تقول في؟ قال: إنك من أعداء الله في الأرض تنتهك المحارم، وتقتل بالظنة، قال: فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟ قال: أقول إنه أعظم جرماً منك. وإنما أنت خطيئة من خطاياه. فقال الحجاج: ضعوا عليه العذاب. فانتهى به العذاب إلى أن شقق له القصب. ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال. ثم جعلوا يمدون قصبة قصبة حتى انتحلوا لحمه فما سمعوه يقول شيئاً. فقيل للحجاج إنه في آخر رمق. فقال: أخرجوه فارموا به في السوق. قال جعفر: فأتيته أنا وصاحب له فقلنا له: حطيط ألك حاجة قال: شربة ماء فأتوه بشربة ماء. ثم مات وكان ابن ثماني عشرة سنة رحمة الله عليه".

٢- "وروي[٢] أن عمر بن هبيرة دعا بفقهاء أهل البصرة وأهل الكوفة وأهل المدينة وأهل الشام، وقرائها. فجعل يسألهم. وجعل يكلم عامر الشعبي فجعل لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده منه علماً، ثم أقبل على الحسن البصري، فسأله. ثم قال: هما هذان. هذا رجل أهل الكوفة يعني الشعبي. وهذا رجل أهل البصرة. يعني الحسن. فأمر الحاجب، فأخرج الناس وخلا بالشعبي والحسن فأقبل على الشعبي فقال: يا أبا عمرو، إني أمين أمير المؤمنين على العراق،

---

(١)الإحياء للغزالي.

(٢)المصدر السابق.

وعامله عليها. ورجل مأمور على الطاعة. أُبتليت بالرعية، ولزمني حقهم فأنا أحب حفظهم. وتعهد ما يصلحهم مع النصيحة لهم. وقد يبلغني عن العصابة من أهل الديار الأمر أجد[1] عليهم فيه. فأقبض طائفة من عطائهم فأضعه في بيت المال. ومن نيتي أن أرده عليهم. فيبلغ أمير المؤمنين أني قبضته على هذا النحو. فيكتب إليّ أن لا ترده فلا أستطيع رد أمره، ولا إنفاذ كتابه. وإنما أنا رجل مأمور على الطاعة. فهل عليّ في هذا تبعة. وفي أشباهه من الأمور، والنية فيها على ما ذكرت؟ قال الشعبي فقلت: أصلح الله الأمير، إنما السلطان وال يخطئ ويصيب. قال فسرّ بقولي ورأيت البشر في وجهه. وقال فلله الحمد، ثم أقبل على الحسن فقال: ما تقول يا أبا سعيد. قال: سمعت قول الأمير يقول: إنه أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها ورجل مأمور على الطاعة. أُبتليت بالرعية ولزمني حقهم. والنصيحة لهم. والتعهد لما يصلحهم وحق الرعية لازم لك وحق عليك أن تحوطهم بالنصيحة، وإني سمعت عبد الرحمن بن سمرة القرشي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة" وتقول: إني ربما قبضت من عطائهم إرادة صلاحهم واستصلاحهم. ويرجعوا إلى طاعتهم. فيبلغ أمير المؤمنين إني قبضتها على ذلك النحو، فيكتب إلي أن لا ترده فلا أستطيع رد أمره ولا أستطيع إنفاذ كتابه. وحق الله ألزم من حق أمير المؤمنين. والله أحق أن يُطاع فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فأعرض كتاب أمير المؤمنين على كتاب الله عز وجل فإن وجدته موافقاً لكتاب الله فخذ به، وإن وجدته مخالفاً لكتاب الله فانبذه يا ابن هبيرة اتق الله، فإنه يوشك أن يأتيك رسول من رب العالمين. يزيلك عن سريرك. ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك. فتدع سلطانك ودنياك خلف ظهرك. وتُقدم على ربك وتنزل على عملك. يا ابن هبيرة إن الله ليمنعك من يزيد. ولا يمنعك يزيد من الله. وإن أمر الله فوق كل أمر. وإنه لا طاعة في معصية الله. وإني أحذرك بأسه الذي لا

---

(١) أغضب عليهم.

يُرد عن القوم المجرمين. فقال ابن هبيرة: اربَع على ظلعك[1] أيها الشيخ وأعرض عن ذكر أمير المؤمنين. فإن أمير المؤمنين صاحب العلم وصاحب الحكم وصاحب الفضل. وإنما ولاه الله تعالى ما ولاه من أمر هذه الأمة لعلمه به. وما يعلمه من فضله ونيته. فقال الحسن: يا ابن هبيرة الحساب من ورائك سوط بسوط – وغضب بغضب والله بالمرصاد يا ابن هبيرة إنك إن تلق من ينصح لك في دينك. ويحملك على أمر آخرتك خير من أن تلقى رجلاً يغرك ويمنيك. فقام ابن هبيرة وقد بسر وجهه وتغير لونه. قال الشعبي: فقلت: يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره وحرمتنا معروفه وصلته. فقال: إليك عني يا عامر. قال: فخرجت إلى الحسن التحف والطرف. وكانت له المنزلة. واستخف بنا وجفينا. فكان أهلاً لما أدى إليه. وكنا أهلاً أن يفعل ذلك بنا. فما رأيت مثل الحسن فيمن رأيت من العلماء إلا مثل الفرس العربي بين المقارف. وما شهدنا مشهداً إلا برز علينا. وقال لله عز وجل. وقلنا مقاربة لهم"[2].

٣- وقد استنصح هارون الرشيد أبا يوسف تلميذ الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، ليكتب له بعض المسائل المتعلقة بشئون الحكم مثل جباية الأموال. وتولية الولاة والقضاة وجهاد المشركين وغيرها، فما كان من أبي يوسف إلا أن يجدها فرصة لتوجيه أمير المؤمنين لعله عملاً بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد تضمنت التوجيهات مقدمة كتاب الخراج لأبي يوسف بن يعقوب بن إبراهيم، وكان مما جاء فيها "فلا تلق الله غداً وأنت سالك سبيل المعتدين فإن ديان يوم الدين، إنما يدين العباد بأعمالهم، ولا يدينهم بمنازلهم، وقد حذرك الله فاحذر، فإنك لم تُخلق عبثاً، ولن تُترك سُدى وإن الله سائلك عما أنت فيه. وعما عملت به. فانظر ما الجواب. واعلم أنه لن تزول قدما عبد حتى يُسأل عن أربع: عن علمه ما عمل فيه، وعن عمره فيم أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه وعن جسده فيم أبلاه. فاعدد يا أمير المؤمنين للمسألة جوابها فإن ما عملت

---

(١) لا تجاوز حدك.

(٢) المصدر السابق.

فأثبت فهو عليك غداً يُقرأ. فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله في مجمع الأشهاد، وأني أوصيك يا أمير المؤمنين. بحفظ ما استحفظك الله، ورعاية ما استرعاك الله. وألا تنظر في ذلك إلا إليه وله. فإنك إن لم تفعل تتوعر عليك سهولة الهدى. وتعمى في عينك. وتتعفى رسومه، ويضيق عليك رحبه. وتنكر منه ما تعرف. وتعرف منه ما تنكر"[1].

هذه النماذج الثلاثة الفريدة غيض من فيض المواقف العظيمة، الزاخرة بها كتب التاريخ الإسلامي عامة. وتاريخ الخلفاء خاصة، وهؤلاء الرجال الذين لم يخشوا في الله لومة لائم. لم ترهبهم قوة السلطان وبطشه بل والفتك والتنكيل بهم. بعد أن يذاقوا من التعذيب والتشريد والتمثيل ألواناً. إننا قبل أن نصف هؤلاء المجاهدين بالجرأة والإقدام والجسارة – وإن كانوا يستحقون وأهل لفوق ذلك – علينا أن نعلم ونقف على عظمة وجلال وعزة وقوة الإيمان بهذا الدين المتين القوي القوائم والأركان، التي دفعتهم إلى أن يعلنوا – غير هيابين أو خائفين – بكلمة الحق والعدل، ولو كان ثمن إعلانهم هذا هو حياتهم، تماماً كما يقدم المقاتل لإعلاء كلمة الله عز وجل روحه وحياته فداء وتضحية لكي تكون كلمة الله هي العليا. ولا غرابة في ذلك أو ليست حياة هؤلاء العظماء ومماتهم لله رب العالمين.

لقد تحدى الإمام أحمد بن تيمية شيخ الإسلام رحمه الله الحكام و الأمراء الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد قائلاً: "ماذا يريد الأعداء مني: سجني خلوة، ونفيي سياحة، وقتلي شهادة! ويقول مفكر معاصر في هذا المعنى – وهو الأستاذ عباس العقاد رحمه الله "لا معنى للدين، ولا للخلق، إذا جاز للناس أن يخشوا ضرراً يصيب أجسامهم، ولا يخشوا ضرراً أن يصيبهم في أرواحهم وضمائرهم وينزل بحياتهم الباقية إلى ما دون الحياة التي ليس لها بقاء، وليس فيها شرف ولا مروءة"[2].

---

(١) في النظام السياسي للدولة الإسلامية د. محمد سليم العوا.

(٢) التفكير فريضة إسلامية صـ١٩.

نعم بجهاد المجاهدين بالكلمة – فليس الجهاد بالسلاح أو السيف فقط إنما الجهاد كما يكون بالمال والأنفس. يكون بالكلمة الهادفة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر – وبالنصيحة لله ولرسوله ولعامة المسلمين وبالشورى تتأكد حرية الرأي. وحرية التعبير. وحرية النقد البناء لسياسة الدولة، وحرية مناقشة. بل ومراجعة ومساءلة الحاكم، "إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني" كما بين ذلك أول خليفة يتوّلى شئون المسلمين وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وبهذه الحرية بالمنظور الإسلامي التي ترتكز وتستند على أسس إسلامية، وهي كما ألمحنا سابقاً – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة والشورى والتي تتولاها المجالس النيابية والشعبية، ووسائل الإعلام المختلفة – تتحقق العدالة السياسية، والاقتصادية والاجتماعية. وفي ظل هذه العدالة الشاملة يسود الرخاء والأمن والطمأنينة وسعادة المجتمع فنصنع الحرية بأيدينا وبجهودنا الذاتية والقومية، ولن نقبل ولا يقبل أي شعب حر أن يُفرض عليه الحرية أو الديمقراطية الغزاة المستعمرون بالعدوان المسلح وبآلاف الضحايا من أبنائنا وإخواننا وأطفالنا ونسائنا. وتدمير الآلاف من البيوت على سكانها. ولقد أثبتنا – سابقاً – بطلان وكذب وزور ادعاءاتهم التي يروجونها ستاراً وتغطية لنياتهم الخبيثة في الاستيلاء على ثروات البلاد. وطمس معالمها الحضارية والثقافية، والتعليمية. هذه المعالم والخصائص الإسلامية التي كانت يوماً ما سبباً لريادتنا وسيادتنا وتقدمنا العلمي، والفكري والعسكري، وهم يعلمون جيداً ذلك. ولذلك يريدون أن يسلبونا ويجردونا من وسائل نهضتنا وحضارتنا. وينبغي علينا ألا نمكنهم من ذلك بل علينا أن نردهم على أعقابهم خاسرين خائبين، وذلك بعد أن نحرر عراقنا بمشيئة الله عز وجل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

من مصادر الكتاب

- القرآن الكريم
- مفاتيح الغيب للإمام الرازي
- روح المعاني للألوسي
- تفسير البيضاوي
- في ظلال القرآن الشهيد سيد قطب
- صحيح البخاري
- صحيح مسلم
- سنن ابن ماجه
- سنن أبو داود
- سنن الترمذي
- المسند للإمام أحمد
- السيرة النبوية لابن هشام
- زاد المعاد لابن القيم
- إحياء علوم الدين للغزالي
- العبودية شيخ الإسلام ابن تيمية
- الاستقامة شيخ الإسلام ابن تيمية
- الشخصية السوية د. سيد عبد الحميد مرسي
- الشخصية بين السواء والمرض د. عزيز حنا وآخرون
- علم النفس العام د. محمد سمير عبد الفتاح و د. فتحي مصطفى الشرقاوي
- خلق المسلم الشيخ الغزالي
- التفكير فريضة إسلامية الأستاذ عباس العقاد
- في النظام السياسي للدولة الإسلامية د. محمد سليم العوا
- فقه السيرة د. محمد سعيد البوطي
- دائرة المعارف الإسلامية
- قصة الحضارة ديورانت ترجمة أ. محمد بدران
- أسرار تقدم اليابان د. محمد عبد القادر حاتم
- المجتمع الإنساني في ظل الإسلام الإمام محمد أبو زهرة
- ١١-٩ نعوم تشومسكي ترجمة أ . إبراهيم محمد إبراهيم
- روح الدين الإسلامي أ. عفيف عبد الفتاح طبارة
- من روائع حضارتنا د. مصطفى السباعي
- ماذا يريد العم سام. نعوم تشومسكي ترجمة الأستاذ. عادل المعلم

المحتويات

تمهيد ٥
السمة الأولـــى: ضبط النفس والتحكم في السلوك ١١
السمة الثانيـــة : تحمل المسئولية وتقديرها ٢٥
السمة الثالثـــة : تقبل الآخرين وإقامة علاقات بالمودة ٣٧
السمة الرابعة : التعاون وعدم الاستغناء عن الآخرين ٥٣
السمة الخامسة : الطموح وتحديد أهداف واقعية ٦٧
السمة السادسة : البذل والمنح للأسرة والمجتمع والإنسانية ٨٥
السمة السابعة : الحرية والاعتماد على الذات ١٠١
المراجـــع ١١٥
محتوى الكتاب ١١٦

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية ١٩٤٣٦ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-209-100-3